موسوعة المشاهير

موسوعة شاملة لأعلام ومشاهير الرجال والنساء فى الشرق والغرب .. قديمًا وحديثًا

الكتاب الثانى

مجدى سيد عبد العزيز



موسوعة المشاهير

الكتاب الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ
صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع ● نشر ● توزيع

القاهرة : ١٠ شارع بستان الدكة
من شارع الألفى (مطابع سجل العرب)
تليفون : ٩٣٢٧٠٦
ص.ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

الجيزة : ٨ ش أبو المعالى (خلف مسرح البالون) العجوزة - تليفون : ٣٤٧٣٦٩١
١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) - الهرم
ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

رقم الإيداع ٥٤٤٨/ ١٩٩٥
I.S.B.N.
977-279-007-6

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ سورة النحل - آية ٩٧

صدق الله العظيم

إهـــداء :

إلى هاتين الأختين ..

المرحـــتين دائمًا ..

الأستاذة « نوسة » ..

والحاجة « حورية » ..

أهدى هذا الكتاب ..

الفهرس

المقدمة

الحسن بن الهيثم ، أبو علم البصريات ، وأول من قام بتشريح العين البشرية ، وأول من فكّر فى بناء « السد العالى » ! .. واسحق نيوتن ، مكتشف الجاذبية ، وأعظم علماء الطبيعة فى كل العصور .. ومحمد إقبال ، شاعر الإسلام الذى أسس دولة ! .. ووليم شكسبير ، أغلى جوهرة فى التاج البريطانى .. ونابليون بونابرت ، سيف فرنسا الذى أغمده الإنجليز .. وفيكتور هيجو ، أديب فرنسا وشاعرها الكبير .. وماركونى ، العالم الإيطالى الذى اخترع الراديو واللاسلكى .. وبنت الشاطئ ، فخر النساء المصريات .. وأرسطو تلميذ أفلاطون ، وحفيد سقراط فى الفلسفة .. وحسن البنّا ، مؤسس « الإخوان المسلمون » ، ورمبرانت ، فنان التحليل النفسى ! .. وكوبر نيكوس ، الفلكى الذى أعاد للشمس حقها ومكانتها .. ومصطفى كامل ، الشعلة التى لم تنطفىء طيلة ٣٤ عاماً .. وباحثة البادية ، رائدة الرائدات المصريات .. وموتسارت ، عبقرى الموسيقى الفقير البائس التعس .. وسعد زغلول ، القاضى والوزير والزعيم .. وأجاثا كريستى ، خبيرة القتل والإجرام .. وأرنولد توينبى ، أفلاطون القرن العشرين .. وهربرت چورچ ويلز ، فيلسوف الصحافة ، وأديب المستقبل .. وهتلر ، الشرير صاحب القلب الطيب المحب ! ..

عشرون شخصية .. جمعتها لك عزيزى القارئ - فى هذا الجزء الثانى من موسوعة المشاهير .

أرجو أن تتعايش معها .. وتتعلم من أصحابها شيئًا ما .. وما أكثر ما ستتعلمه منهم .. غير أنى لا أريد منك أن تقتصر على هذه الترجمات فقط .. بل أن تتعدى هذه الصفحات المعدودة إلى ما هو أوسع وأرحب .. فبعد أن تقرأ ترجمة شكسبير هنا - مثلاً - ماذا عليك لو أنك ذهبت لتطالع مسرحياته الرائعة ، الواحدة تلو الأخرى .. هاملت أو عُطيل أو تاجر البندقية أو .. إلخ ؟ ... أليس فى ذلك فائدة ومتعة أكبر ؟ أيضًا .. بعد أن تعرف شيًا عن سيرة حياة الدكتورة الجليلة بنت الشاطئ ما الذى سيمنعك من استعراض بعض من مؤلفاتها .. ولا أقول كلها - وخاصة كتابها الرائع تراجم سيدات بيت النبوة ؟ ..

ورمبرانت المصوّر الهولندى الكبير ، عرضنا هنا لمولده وحياته ووفاته ؛ ولكننا لم نعرض لأهم ما يتصل بحياته .. أى لوحاته .. فما الذى سوف تخسره لو أنك استعرضت لمسات فرشاته الساحرة على هذه اللوحات ، فى أقرب مرجع فنى تستطيع الوصول إليه .. وتتأمل نظراته الثاقبة إلى النفوس البشرية .. وخاصة فى « العجوز ذو الرداء الأحمر .. » و« تأمل الفيلسوف » و« عودة الابن الضال » وغيرها ؟ ..

ولكى تكون قارئًا جيدًا لابد أن تكوّن مكتبة لك فى بيتك ..

ولكى تكون هذه المكتبة جيدة ، لابد أن يكون بها قسم خاص بالتراجم .. أى كتب السِير والأعلام ..

أعلام الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والتصوير والتاريخ .. تاريخنا الإسلامى بالذات ..

وكما سرت على نهج معين فى الكتاب الأول من هذه الموسوعة ، اتبعت هذا النهج نفسه فى هذا الكتاب الثانى .. فقدمت أعلامًا متنوعة ومتباينة .. جمعوا بين العالم والشاعر والقائد والفيلسوف والموسيقى والرسَّام .. وغيرهم ... رجالاً ونساءً أيضًا .

تُرى .. ألا تتشوق الآن إلى أن تعرف ما تقوله تراجم هؤلاء العشرين عَلَمًا ؟ ..

فلتقلب إذًا الصفحات التالية .. وإذا انتهيت منها .. فلتنتظر الكتاب الثالث ، وما سيأتى به إن شاء الله .

مجدى سيد عبد العزيز
مدينة ١٥ مايو
فى ٢٧ مايو ١٩٩٥

« تاريخ حياة الناس هو أصدق التاريخ ».

توماس كارليل



ابن الهيثم

(٩٦٥-١٠٣٩م)

أبو علم البصريات

إنه ليس أعظم علماء الطبيعة في العصور الوسطى فحسب ؛ بل إنه بإجماع الآراء أعظمهم فى كل العصور .. ويتربع على رأس قائمة علماء البصريات قاطبة ..

إنه الحسن أبو على بن الحسن بن الهيثم .. أحد علماء ثلاثة يزدهى بهم تاريخ العلم وهم : ابن سينا . وابن الهيثم ، والبيرونى .. بلغت الحضارة العلمية الإسلامية فى عهدهم الذروة ، وذلك من منتصف القرن الرابع الهجرى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ..

وهو كأحد علماء الطبيعة الإسلاميين ، يعتبر الأرفع شأنًا والأعلى كعبًا والأرسخ قدمًا ..

ولد فى البصرة بالعراق عام ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، فى وقت كان العرب قد أتموا نقل الكثير من كتب الإغريق فى الفلسفة والطبيعة والهندسة وكذلك نقل بعض كتب الهند وفارس ، فى علم العدد وعلم الفلك .. وكان العلماء المسلمون قد قاموا بشرح هذه العلوم والتعليق عليها وإضافة الكثير إليها ..

وقد شهد ابن الهيثم عصرًا مزدهرًا فى العلوم الفلسفية والعقلية والعلوم التعليمية أيضًا .. وقد انكب على الكتب ودرس كل ما وقعت عليه يداه مما صنفه

الأقــدمــون ، مــثل أصــول إقليــدس "Euclid" ومـقـالات أرشـمـيـدس ، وبطليموس"Ptolemy" فى العلوم .

كما درس فلسفة أرسطو وطب جالينوس ..

وأثناء انكبابه على الدرس كان ابن الهيثم يلخص ما يقرأ أو يضيف إلى ما يلخصه ملاحظاته وآرائه .

لقد زادت مـصنفـاته وكـتـبـه ورسـائله على المائتين ، ذاعت بين الناس فى عصره ولكن ضاع الكثير منها ؛ بل لم يصل إلينا علمه .. فقد ذكر أنه ألفَّ فى الهندسة ثمانية وخمسين مصنفًا ، لا نجد منها فى مكتبات العالم سوى واحد وعشرين ، وفى الطبيعة أربعة وعشرين مصنفًا ، لا نجد منها إلا اثنى عشر ، وفى الفلك أربعة وعشرين أيضًا لا نعرف منها سوى سبعة عشر ، وفى الطب كتابين ، وفى الفلسفة والمنطق وعلم النفس والإلهيات والأخلاق واللغة ما يزيد على أربعين مؤلفًا ..

إلا أن كتاب « المناظر » هو أشهر تصانيفه على الإطلاق ..

وذاعت شـهـرة هذا العـالم الشـاب فى جمـيع أنحـاء العـالم الإسـلامى حتى وصلت إلى الحاكم بأمر الله الفاطمى ، حاكم مصر فى ذلك الوقت ، وعرف أمر ابن الهيثم وعلو مقـامه فى العـراق ، وأنه قال : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عمـلاً يحصـل به النفـع فى كل حـالة من حـالاته ، من زيـادة أو نقص . فـقــد بلغنى أنه ينحـدر من مكانٍ عـالٍ وهو فى طـرف الإقليم المصـرى » ..

وعلى ذلك لا يُعد ابن الهيثم عالم طبيعة فقط ؛ بل مهندسًا كبيرًا بمقاييس عصره ، وأنه أول من أشار إلى فكرة تخزين مياه النيل عند أسوان للانتفاع بها

فى فصول الجفاف .. ولعل هذه الفكرة قد تحققت فقط فى ستينات هذا القرن بإنشاء « السد العالى » ..

فأرسل الحاكم بأمر الله إليه أموالاً وهدايا ، وناشده الحضور إلى مصر ، فلما أقبل ابن الهيثم ، خرج الحاكم لاستقباله خارج القاهرة ، والتقى به فى قرية قرب أحد أبواب القاهرة مُرحبًا ، وأكرم وفادته ..

وانتظر الحاكم أياماً حتى استراح ابن الهيثم من عناء السفر .. ثم طالبه بما قاله فى أمر النيل .. وبالفعل .. سار ابن الهيثم ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم – وكأنهم بعثة هندسية بالمعنى المعروف حاليًا – وهو على رأسها ، يتتبع مجرى النيل من القاهرة إلى جنوب أسوان ، حتى وصل إلى مكان يقال له الجنادل (ولعله الشلال) ، ولم يجده ابن الهيثم – كما بلغه من قبل – موضعاً عاليًا ينحدر منه النيل ، فعاينه واختبره من جوانبه ، وفكر وقدر ، فلم يجد الأمر متفقا مع الفكرة الهندسية التى خطرت له فعاد إلى القاهرة ، وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال ، واعتذر للحاكم ...

وتظاهر الحاكم بقبول عذر ابن الهيثم ، وولاّه منصبًا من مناصب الدولة .. ولكن ابن الهيثم كان كارهًا لهذا المنصب الذى ولاّه الحاكم ، فقد كان بطبعه كارهًا للمناصب ، لا يستسيغ أعمال الدواوين ، ميالاً إلى الانقطاع للبحث العلمى وإجراء التجارب وتأليف الكتب .. ففكر فى حيلة يتخلص بها من هذا المنصب ، دون أن يجلب على نفسه غضب الحاكم بأمر الله ، فلم يجد وسيلة غير أن يتظاهر بالجنون وخبال العقل ! ... وأشاع ذلك عن نفسه ! حتى بلغ الحاكم أمره ، فعزله عن منصبه ، وصادر أمواله ، وعيّن من يقوم بخدمته ! .

وظل ابن الهيثم فى هذا الوضع المأساوى حتى مات الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ .. فلما يتيقن من الخبر ، استوطن غرفة بجوار الجامع الأزهر ،

وعاد إلى البحث والانقطاع للعلم .. وكان هذا العالم الجليل فقيراً ، يعتمد على نسخ الكتب العلمية ، ويبيعها ليكسب قوته .. واشتهرت الكتب التى كان ينسخها بجودة النسخ ودقتها العلمية الممتازة ، وكان الناس والعلماء يقدرونها ويعتزون بها ويفخرون باقتنائها ..

وعلى هذه الحال عاش ابن الهيثم ما بقي من حياته ، حتى توفى بالقاهرة فى أواخر عام ٤٣٠هـ (١٠٣٩م) ..

وفى تلك الفترة بالذات ، قام ابن الهيثم بإنجاز أكبر أعماله العلمية قيمة وأهمها شأناً ، وضمنها فى كتابه الشهير « المناظر » وهو ذلك الكتاب الذى تضمن نظرياته عن علم البصريات ، من انكسار الضوء إلى كيفية الرؤية وغير ذلك من الأمور العلمية الخاصة بالبصريات التى تعتبر أساساً للتقدم العلمى الحاضر فى هذا المجال ..

لقد ظلت أوربا تحاول استيعاب ما فيه ستة قرون واستفاد منه كل العلماء الذين أتوا بعد ابن الهيثم ..

فقد اعتمد روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) وجميع الكتاب الغربيين فى القرون الوسطى ، وبخاصة أمثال فيتلو البولندى ، الذين اهتموا بهذا الموضوع ، فى مؤلفاتهم فى علم البصريات اعتماداً كلياً على أقوال ابن الهيثم ، كما أثر مؤلفه أيضاً على ليوناردو دافنشى (١٤٥٢-١٥١٩) ، ويوهان كبلر (١٥٧١-١٦٣٠) .

وقد كشف العلماء فى دراستهم عن ابن الهيثم ، أن بعض مؤلفات يوهان كبلر ذاته كانت أقل درجة من مؤلف ابن الهيثم « المناظر » .

كما أشاروا إلى أن « كل ما ورد فى كتاب فيتلو قد نُقل نقلاً ، أو بشىء من التصرف قليل أو كثير من كتاب ابن الهيثم » ..

ولقد انتشر كتاب المناظر هذا انتشاراً واسعًا فى القرون الوسطى فى حوالى خمس ترجمات لاتينية ، وعدة ترجمات أخرى إلى اللغات المحلية المشتقة من اللاتينية ..

لقد عارض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس - اليونانيين - البدائية والتى تقول بأن العين البشرية ترسل الشعاعات البصرية إلى الأجسام المرئية ، فتراها أو تبصرها .. وأثبت أن الضوء هو العامل أو المؤثر الخارجى الذى يحدث عنه إحساس البصر ، حيث أن كل نقطة على الجسم ترسل شعاعًا ضوئيًا إلى العين ، ومن ثم تراه ..

كما قام ابن الهيثم بتشريح العين البشرية ، وذكر السائل المائى والسائل الزجاجى وعدسة العين كما نعرفها الآن .. وكان أول من ميز بين أربعة أعضاء مختلفة من أعضاء العين هى : القرنية والمشيمة والشبكية والصُلبة ..

وقد كان لهذا الوصف الدقيق لتركيب العين أهمية فسيولوجية كبيرة بعد ذلك ..

وقد قال الأستاذ « مايرهوف » : إن ابن الهيثم قد استطاع أن يقترب جداً من الاكتشاف النظرى للعدسات المكبرة ، تلك التى صنعت فى إيطاليا بعد ذلك بثلاثة قرون ..

وسجل ابن الهيثم أيضًا الجزء الهالى المضئ من الشمس على حائط فى غرفة مظلمة من خلال ثقب فى خشب الشباك .. وكان هذا أول ذكر للبيت المظلم ، أساس التصوير الضوئى كله ..

إن البيوت المظلمة ذات الثقب قد ذكرت كثيراً فى أقوال ابن الهيثم ، وهى تطابق الجهاز المسمى فى كتب الضوء المبسطة « الخزانة المظلمة ذات الثقب الأسود » ..

ومن الشائع والمتواتر نسبة الفضل فى الكشف عن تكون الصورة المنكوسة للجسم إذا نفذ الضوء المشرق من جسم مبصر من ثقب ضيق فى حاجز واستُقبل على حاجز أبيض من خلفه إلى العالم « دلابورتا » الذى أورد ذكر هذه الخزانة المظلمة ووصفها فى كتاب له نشر عام ١٥٨٩ .. ولكن ابن الهيثم سبقه إلى هذا بحوالى ستة قرون .. وكانت أفكاره جميعاً شائعة بين كتاباً أوربا ابتداءً من القرن الثانى عشر ..

لقد استحق ابن الهيثم شهادة چورچ سارتون ، مؤرخ العلم فى العصر الحديث ، حين قال : « إن ابن الهيثم أكبر عالم طبيعة مسلم فى جميع العصور والأزمان » ..

كما قال عنه العالم البريطانى - البولندى الأصل ، ج برونوفسكى ، فى كتابه « ارتقاء الإنسان » إنه « هو وحده العقل العربى الأصيل الذى أنجبته الثقافة العربية » .. وسمّاه المؤرخون العرب : « الحكيم بطليموس الثانى .. وقالوا عنه أيضاً : « إنه رجل عاش فى القرن العاشر بعقلية رجال القرن العشرين » وإنه : « أبو علم البصريات » ..

وقد كان عصر ابن الهيثم عصر اضطراب وانحلال سياسى ، ومن العجيب حقًّا أنه استطاع أن يحافظ على تفكيره العلمى وأبحاثه المتصلة ..

ولم يذكر المؤرخون أى شىء عن الأساتذة العرب الذين تتلمذ عليهم ابن الهيثم فى صغره أو شبابه ، كذلك لم يذكروا شيئًا عن حياته الخاصة ؛ ولذلك كانت نواحٍ كثيرة من حياته مجهولة تماماً .

لقد توفى هذا العالِم العربى العظيم فقيراً مُعدماً ، لم يترك ورائه مالاً ، ولكنه ترك للعالم كله إرثًا من العلم والمعرفة يفوق مال قارون ..

فقد كان ابن الهيثم عازفًا عن الصغائر وزاهداً فى الترف والمال والسلطان وانكبابه المنقطع النظير على العلم .. وحدث أن قام بتعليم أحد الأمراء ، وبعد حين دفع هذا الأمير أجر تعليمه لابن الهيثم ، فما كان منه إلا أن قال له : « خذ أموالك بأسرها فأنت أحوج إليها منى عندما تعود إلى ملكك ومسقط رأسك ، واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى نشر العلم وإقامة الخير » ..

وكان الحسن بن الهيثم يقول : « يكفينى قوت يوم » ..





نيـــوتن

(١٦٤٢-١٧٢٧)

أعظـم العلمــاء

قال عنه أينشتين ، فى مقدمة لطبعة جديدة من كتاب «البصريات » :

« كانت الطبيعة عند نيوتن كتاباً مفتوحاً يقرأ حروف كلماتها فى يسر وسهولة .. لقد جمع فى شخص واحد بين الباحث التجريبي والمفكر النظرى وعالم الميكانيكا والفنان فى عرضه لأفكاره .. إنه يقف أمامنا شامخاً واثقا فريدا .. تلمس فى كل كلمـة مـن كلماتـه بهجـة فـى الخلـق والإبـداع والدقة الفائقة » ..

ويحتل نيوتن قمة شامخة بين علماء القرن السابع عشر ، إن لم نقل علماء التاريخ جميعًا . ودون استثناء ، ويعجب المرء كيف جمع نيوتن بين مواهب فذة مختلفة ندر أن اجتمعت لعالم واحد فى آن معًا .

فـقـد تمتع بموهبـة عـالم الفـيـزياء النظرى ، تلك الموهبـة التى تجلت فى دراسـته جـاذبية الأرض ، واهـتدائه إلى قـوانينهـا .. وتمتع أيضًا بموهبة عالم الرياضيات المجردة ، وقد برزت فى اكتشـافه علمًا كاملاً من علوم الرياضيات ، وهو علم (الكالكولاس) Calculus ، أو حساب التفـاضل والتكامل ، كما يسمى فى العربية ..

وجمع نيوتن إلى ذلك كله موهبة المخترع والصانع العلمى الماهر ، فقد ابتكر وصنع بيده تليسكوب المرآة العاكسة .. وذلك إلى جانب مواهبه الأخرى التى مكنته من دراسة الحركة ووضع قوانينها ، ودراسة الضوء واكتشاف الكثير من خصائصه كالانحراف الذى يتمثل فى أشعته المنكسرة ، واجتماع ألوان الطيف فى ضوء الشمس الذى يبدو لنا أبيضًا ..

وقد كان له تأثير كبير على تطور الفكر الفلسفى من خلال آرائه عن المنهج العلمى وفلسفة العلوم وصورة الكون الجديدة .

وقد ولد اسحق نيوتن Isaac Newton فى « ولتروب » بمقاطعة لانكشاير فى انجلترا ، فى ٢٥ ديسمبر ١٦٤٢ ، وهو نفس العام الذى توفى فيه عالم الفلك الشهير جاليليو جاليلى .. وتوفى والده قبيل أن يرى النور ، وكفلته أمه عامين ، ثم تزوجت وتركته فى رعاية خاله وجدته لأمه ، ولم يكن فى عائلته من اشتهر بالعلم ..

ولم يُبد فى حداثته ما يدل على عبقريته ، تلك التى تجلت فجأة بعد أن اكتملت رجولته ، ولم تظهر عليه ملامح الذكاء وهو طفل ؛ ولكن ظهرت براعته فى قدرته على استخدام يديه ، فظنت أمه أنه من الممكن أن يكون ملاّحًا بارعًا أو نجارًا نشطًا ، وكان مدرسوه يشكون من أنه لا يهتم كثيرًا بما يقولون ! ..

ولكنه لم يكن يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى أخذ يقرأ بلهفة كل شىء ..

والتحق نيوتن بكلية « ترنتى » بجامعة كمبردج فى عام ١٦٦١ ، وهناك قرأ كل ما وقع تحت يديه من الكتب .. وتتلمذ على أستاذه « بارو » فى الفلسفة الطبيعية والبصريات .. الذى لمس فيه ملامح النبوغ والعبقرية – تلك التى حجبها عن الآخرين مزاج نيوتن الانفعالى المتمرد والمتعالى شيئًا ما – فتولى

أموره ، وأصبح مدرسه الخاص ، وأتاح له بذلك التقدم السريع ، ومفاجأة علماء تلك الأيام بعبقرية متألقة نادرة المثال ..

وقد برهن نيوتن نظريته المعروفة بذات الحدين عام ١٦٦٤ ، ثم تخرج من الجامعة عام ١٦٦٥ ، واتفق أن شهدت تلك السنة بالذات انتشار وباء الطاعون فى لندن وغيرها ، فحال ذلك دون مباشرة نيوتن حياته العلمية والعملية .. واضطر للعودة إلى الريف ، إلى مزرعة العائلة حيث قضى سنة (١٦٦٥ و ١٩٦٦) فى عزلة تامة تفرغ فيها للتأمل والتفكير العلمى ..

وتعتبر تلك الأجازة القسرية فترة ذهبية فى حياة نيوتن العلمية ، فقد اكتشف فى أثنائها ، فيما اكتشف قوانين الجاذبية وصاغها ، ثم شرع فى وضع كتابه الشهير (البرنسيبيا) .. ذلك الكتاب الذى تردد كثيراً فى نشره لابدافع الخوف من الكنيسة ، وإنما بدافع الخوف من أن يكون كتاباً تافهاً بلا قيمة ! ..

ولكن ظلت هذه الكشوف مطوية سنين طويلة ، مما أدى إلى اختلاف الرأى حول أسبقية كشفها ، ولمن تكون ..

وعاد نيوتن إلى كمبردج ، وأنتخب أستاذاً للرياضيات عام ١٦٦٩ ، إثر اعتزال أستاذه « بارو » وقد شغف بالبحث العلمى فى فروع مختلفة من العلم ، وصرف كثيراً من وقته وجهده في فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة ، مثل تحويل النحاس أو الحديد أو الفضة إلى ذهب ، وهى الفكرة التى عالجها كيميائيو العرب من قبله ..

ولاحظ أن الضوء عند مروره فى منشور زجاجى يتغير لونه إلى ألوان كثيرة ، وتتكسر بدرجات مختلفة عند نفاذها ، فصنع المنظار العاكس ذا المرآة لتتخلص من العيب الناشئ عن انكسار الضوء ، وأهدى منظاره إلى الجمعية الملكية ورُشح لعضويتها ، وانتخب عضواً بها فى يناير من عام ١٦٧٢ ، ونشر

بها بحثه الأول عن تركيب الضوء ، وكانت نتائجه مبنية على التجربة والمشاهدة لا عن طريق الإفتراضات ..

كان يقول : « إن أضمن وأحسن وسيلة للعلم ، أن يدرس الإنسان خواص الأشياء ويقررها ، ثم يأتى دور الفرض والتفسير ؛ لأن الفروض يجب أن تكون لتفسير خواص الأشياء » ..

ويقول أيضاً : « إن نتائج التجربة لا يمكن التشكيك فيها أو محوها ، إلا تجربة أخرى تثبت خطأ نتائج الأولى »

ويقول : « إن المرء إذا أتى بجديد ، كان عليه أن يصبح عبداً للدفاع عنه ، وإن الشهرة التى اكتسبها لم تكن لتعوضه عما فقده من هدوء البال والانقطاع للتأملات » ..

والواقع أن نيوتن قد لاقى كثيراً من العَنَت فى مناقشة معارضيه من أمثال : « لونس » و« لوكاس » و« هوك » و« ليبنتز » و« فلامستيد » ، وغيرهم .

وقد قدم نيوتن إلى الجمعية الملكية كتابه الشهير « برنسيبيا» ، أو الأسس الرياضية الفلسفية الطبيعية ، فى ثلاثة أجزاء عام ١٦٨٦ ، ونشر فى العام التالى ١٦٨٧ ..

وقد انتخب ليمثل الجامعة فى البرلمان عام ١٦٨٩ ، وقد وقف مع زملائه أعضاء مجلس الجامعة ، موقفاً حازماً من الملك « جيمس الثانى » ورفضت الجامعة ما أراده الملك وقتها ، وكان نيوتن يرى أن الحل الأوسط معناه التسليم ، مما أدى فى النهاية إلى طرد جيمس الثانى من إنجلترا ..

وقد إنقطع نيوتن عن عمله فى الجامعة مرتين الأولى : بسبب انتخابه عضواً فى البرلمان ، وقد استغرقت سنة كاملة .. والثانية : بسبب مرض خطير ألم به ، وقد استغرق سنتين .

وظل فى الجامعة طوال ٢٨ عاماً ، اشتهر خلالها كعالم عظيم ، وذاع صيته ، حتى توافد كثير من علماء العصر على كمبردج لزيارة العالم العظيم ..

وفى عام ١٦٩٥ ، تخلى عن منصبه فى الجامعة ، وذلك بسبب تعيينه مراقباً فى دار سك النقود الحكومية ، وواصل عمله الإدارى الجديد بهمة ونشاط حتى عُين رئيساً لها ..

كما انتخب أيضاً رئيساً للجمعية الملكية وهو فى الستين من عمره ..

وتوفى فى العشرين من مارس عام ١٧٢٧ ، عن عمر يناهز الخامسة والثمانين .. ودفن فى مقابر العظماء ، وكان أول من دُفن فيها ..

وربما كان الساسة والمصلحون أبرز أثراً فى حياة الناس بعد نيوتن ؛ ولكن المهم هو أن حياة الناس قد أصبحت شيئاً آخر بعد ظهور نيوتن ..

وهو القائل : « لقد أصبحت عملاقاً لأنى وقفت على أكتاف العمالقة » ..

وقال أيضاً : « إذا قابلت جماعة لأول مرة ، فضع نفسك موضع المتعلم ، فخطة الغريب أن يتعلم لا أن يُعلم ، وأن تجعلهم يشعرون باحترامك لهم ، فيأنسون لصحبتك ، ويطلعونك على ماالديهم من أفكار ومعلومات .. وسوف لا تجنى فائدة بظهورك أمامهم بمظهر من هو أكثرهم حكمة ، أو من يتصنع الجهل الفاضح » .

وقال : « توخ الإعتدال فى النقد ، ولا تزج بنفسك فى مواقف غير مستحبة ، والأفضل أن يمتدح الإنسان الشىء بأكثر مما يستحق ،

فالاستحسان لا يلقى معارضة قوية بعكس الإستهجان ، ولا شئ يقربك من الناس أكثر من استحسانك ومدحك لما يحبون . إن احترامك عقلك ، إذا حكمته في العاطفة ، أحسن سلاح لك » .

وكان يصوغ نظرياته سراً ، ولا يعلن عنها إلا إذا أكتملت عاماً ، وبعد أن يجربها ويثبت له أنها صحيحة مائة في المائة ..

وكانت حياته كلها إما عملاً وإما تأملاً وتفكيراً .. وكان يتمكن من أن يدخل معمله ، ويظل يعمل فيه على مدى ٧٢ ساعة متواصلة .. حتى يؤخذ بالقوة ، ويوضع في سريره لينام .. ينام ساعتين فقط ! .. ثم يقوم بعد ذلك ليواصل كفاحه العملي ..

وتروى عن نيوتن نوادر كثيرة في شرود ذهنه ، ونسيانه ، وإسترساله في التأمل العميق .. منها أنه في صباح يوم ما كان منشغلاً تماماً في حل إحدى المشكلات العلمية المعقدة ، حتى أنه نسى تناول إفطاره .. وعلمت زوجته أنه لا فائدة من عودته للإفطار ، مادام منشغلاً في عمله ، ولو حملت الإفطار إليه في معمله ، لتركه حتى يبرد !..

فأتت الزوجة ببيض طازج ، ووعاء به ماء ، وذهبت لزوجها - نيوتن - وناولته البيض الذى كان يحب تناوله مسلوقًا .. ومدت يدها له بالساعة ، وذكرته بألا يترك البيضة في الماء الذى يغلى على الموقد الصغير ، أكثر من ثلاث دقائق .. وتركته وانصرفت .. ولما عادت لأخذ الوعاء بما تبقى فيه ، وجدت نيوتن مازال ممسكًا بالبيضة في يده ، بينما الساعة مستقرة في إناء الماء الذى يغلى على الموقد ! .

لقد كان نيوتن رياضيًا من الطراز الأول ، وعالما تجريبيًا ممتازًا ، ذا

مقدرة فذة على استخلاص الحقائق المهمة من المشاهدات والتجارب ، وقد ترك للعالم ثروة بالغة من العلم .. ولا شك أنه من أعظم الشخصيات العلمية فى التاريخ ، وأن أعماله فى قانون الجذب العام وتركيب الضوء والميكانيكا ، وغيرها ، ستظل شاهدة أبد الدهر على عظمة هذا العالم العملاق .

وفى أُخريات أيامه قال :

« لا أعرف كيف سينظر العالم إلىّ ، ولكنى أنظر إلى نفسى كالطفل يلهو على شاطئ البحر .. وفى الحين بعد الآخر ، يلتفت إلى حَصَاة أنعم من غيرها ، أو صدفة أجمل من الأخريات .. بينما بقى بحر الحقيقة الخضم مجهولا أمامى » ! .





محمد إقبـــال

(١٨٧٧-١٩٣٨)

شاعر الإســـــلام

إذا أنت دخلت غرفة نومه ، فى بيته « جافيد منزل » بلاهور ، والذى حولّته الحكومة الباكستانية إلى متحف ، ستجد ساعة الحائط متوقفة بالضبط على لحظة موته : الرابعة وثلاث دقائق ..

وكان ذلك فجر يوم ٢١ إبريل ١٩٣٨ ..

وإذا حسبنا عمره باليـوم والسـاعة والدقيقـة ، فسنجده ٢٢٠٧٧ يوماً و ٤ ساعات و٣ دقائق .. فقـد ولدته أمه السيدة « إمـام بيبى » فى بيت العائلة بسيالكوت ، يوم ٣ ذى القعـدة عام ١٢٩٤ هـ ، الموافـق ٩ نوفمـبر عام ١٨٧٧م ..

وشاعر الإسلام ، محمد إقبال نور محمد محمد رفيق جمال الدين ، هو فى الأصل من كشمير ، فالجد كشميرى ، نزح الى مدينة « سيالكوت » العاصمة التاريخية القديمة لولاية البنجاب الهندية .. وربما يكون جده هذا هو الجد الأكبر ، الشيخ : جمال الدين ، أو جده الأول ، الشيخ محمد رفيق ، أما أبوه الشيخ : نور محمد ، فمن المؤكد أنه ولد فى سيالكوت ..

وفى بيت العائلة هذا ، الذى اشتراه جده الشيخ : محمد رفيق ، فى فبراير ١٨٦١ ، نشأ محمد إقبال ، وظل يعيش فيه حتى الصف التاسع الدراسى ، ثم انتقل إلى « لاهور » ليواصل دراسته .

وفى السنوات الأولى من حياته ، تلقى دروسه على يد والديه ، ثم شقيقه الأكبر : الشيخ عطا محمد ، ومعلمه الخاص : شمس العلماء سيد مير حسان ، والشاعر : ميرزا داغ ، حاكم ولاية دلهى ، والذى كان أول من رصد محمد إقبال وميض شرارة الشعر ..

وقد تعلم العربية والفارسية ، وحفظ القرآن الكريم .. وبفضل تمكنه من اللغة العربية ، حصل على درجة الليسانس فى الآداب من جامعة البنچاب بلاهور .. ولذا ترصد فى أشعاره كثيراً من الألفاظ العربية إلى جانب الكلمات التركية والفارسية ، وكلها موظفة ومُذابة فى اللغة الأوردية ..

ثم حصل على ماچستير فى الفلسفة من نفس الجامعة .. وعمل مدرساً للأدب الإنجليزى فى نفس الكلية التى تَخَرّج فيها ..

ثم سافر إلى لندن ، وهناك درس الفلسفة لمدة ثلاث سنوات فى جامعة « كمبردج » ، وبعد ذلك انتقل إلى ألمانيا وحصل على الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة « ميونيخ » عام ١٩٠٧ ، وكان موضوع رسالته : « تطور ما وراء الطبيعة فى فارس » .

ثم عاد ثانية إلى لندن ، وحضر امتحان الحقوق النهائى ، وحصل على إجازة القانون من جامعة لندن ، وانتسب لمدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية ، وتخصص فى هاتين المادتين ..

وقد عاد إلى الهند ، وعمل فترة مدرساً فى المدرسة الشرقية بلاهور ، ثم فى الكلية الإسلامية بعدها هجر مهنة التدريس ، واشتغل بالمحاماه ..

وكان آيه فى القناعة .. نفقاته الشهرية لا تتجاوز ٥٠٠ روبية ؛ ولذا كان لا يقبل من القضايا أكثر مما يكفل له هذا المبلغ المتواضع !.. ولكن أوضاعه المالية تحسنت نسبياً عندما بدأت بعض الشركات الهندية تسجل قصائده على إسطوانات .

وفى عام ١٩٢٤ انتُخِب عضواً بالجمعية التشريعية عن إقليم البنيچاب ، وشارك فى نشاط حزب « الرابطة الإسلامية » وفى عام ١٩٣٠ تم اختياره رئيساً لمؤتمر ذلك الحزب ، حيث تمت الدعوة إلى تقسيم الهند ، بحيث يكون للمسلمين موطن يخصهم .. وقد كان لإقبال جهود جبارة فى هذا المجال ، حتى تم تأسيس دولة الباكستان ..

ولمحمد إقبال باع طويل فى عالم الشعر .. وقد كتب أولى قصائده الشعرية فى فبراير ١٩٠٠ ، وكان عمره لا يتجاوز ٢٣ عاماً ، وهى قصيدة « ناله يتيم » أو « صرخة يتيم » .. وفيها يصوّر بؤس اليتيم ، وضياعه ، وإنعدام إحساسه بجذوره .

وكان أبوه الشيخ نور محمد ، يقرأ أعماله قبل الطبع ، وكان مُعجباً بصفة خاصة بأشعار ديوانه « أسرار النفس » أو «Asrar-i-khudi» .. يترنم بأبياته فى لذة وفخار ، كلما خلا بنفسه ..

ولإقبال عشرة دواوين ، تضم كل أشعاره .. أولها ديوان « أسرار النفس » وفيه يؤكد على امتداد ١٥٦ صفحة باللغة الفارسية أن شكل الحياة إنما يأخذ تأثيراته من نفس الإنسان وآخر هذه الدواوين هو « رسالة من الحجاز » أو «Armugham-hijaz» ، ولم يُنشر إلا فى نوفمبر ١٩٣٨ ، أى بعد وفاته بستة أشهر ..

ومثلما نظم إقبال نَثَر أيضاً .. فله ثلاثة كتب هى : « علم الاقتصاد » وتاريخ الهندية و « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » الذى كتبه باللغة الإنجليزية ..

وكان كثير الأسفار .. زار معظم دول أوربا : وصلى فى مسجد « قرطبة » بأسبانيا ، ومن وحيه كتب قصيدته الشهيرة « مسجد قرطبة »

أو «Masjid - Qortoba» وزار القدس ، ثم كابول ، العاصمة الأفغانية عام ١٩٣٣ ، وشارك فى وضع سياسة جديدة للتعليم هناك ، وعاد منها ليكتب قصيدته « مسافر » أو " Musafir " ..

ومنذ عام ١٩٣٤ ، بدأت تنتابه العلل ، ثم بُح صوته ، وأخذت صحته تتدهور شيئًا فشيئًا ، من جرّاء أزمة الربو التى أصيب بها حتى توفى عام ١٩٣٨ ..

وللشاعر والفيلسوف محمد إقبال دور كبير فى إثراء الحضارة الإسلامية ، والكشف عن جوهرها ، وتجليتها للناس ، وإثبات أصالة الفكر الإسلامى ، وقدرته على تخليص الإنسان المعاصر من الأزمات التى يرزح تحت وطأتها ، والنهوض بالبشرية من الكبوة التى تردت فيها بفعل الاستعمار الغربى ، وبفعل الاهتمام بالمادة وحدها على حساب الروح ..

وقد تزوج إقبال فى حياته ثلاث مرات .. الأولى : « كرم بيبى » وأنجب منها ولدًا اسمه « أفتاب » .. والثانية : « مختار بيجوم » ، ولم ينجب منها .. والثالثة « صدَار بيجوم » وأنجب منها ابنه « جافيد » ، وابنته « منيرة » ..

وكان يحب ابنه جافيد ؛ ولكنه كان متعلقًا بابنته منيرة أكثر .. وعندما توفى كان جافيد فى الأربعين من عمره ؛ بينما لم تكن منيرة قد جاوزت الثمانى سنوات .. لهذا كان قلقًا عليها ، وظل يردد اسمها فى لحظاته الأخيرة ..

وكان من خطط محمد على جناح ، أول رئيس لباكستان وصديق إقبال ، أن يبنى له مقبرة عظيمة ينقل إليه رفاته فور الاستقلال ، وإعلان ميلاد دولة باكستان فى أغسطس ١٩٤٧ ؛ لكن الأحداث الجسام أخرت بناء المقبرة حتى عام ١٩٥١ ..

وقد وضع تصميم مقبرة إقبال المهندس الباكستانى « نوّاب يارجانيج بهادور » ، وفى خطوطه مزيج من العمارة الأندلسية والأفغانية ، وقد بُنيت فى أحضان المسجد الكبير ، مسجد « بادشاهى » بلاهور ، فيما بين مدخله الرئيسى وإحدى مآذنه ، وهى مبنية بالحجر الرملى ، وداخلها مبطن بالرخام الأبيض ، منقوش عليه ستة أبيات من قصيدة لإقبال ، مع أبيات من قصائد أخرى تعبر عن موقفه الصارم من التفرقة العنصرية بين بنى الإنسان .. أما رخام اللحد فقد جاء هدية من الحكومة الأفغانية ..

أما بيت العائلة ، الذى تربى فيه إقبال ، فقد تنازل عنه بعد وفاة والده عام ١٩٣٠ لأخيه الأكبر الشيخ عطا محمد ، ثم اشترته الحكومة الباكستانية عام ١٩٧١ ، لقاء ١٢٥ ألف روبية ، وقامت بترميمه وحوّلته إلى متحف وأثر تاريخى ، يضم مقتنيات إقبال ..

وفى هذا البيت أو المتحف ، نجد كل شىء على ما كان عليه فى حياة إقبال : ملابسه ، قمصانه وأغلبها بغير ياقات .. وملابسه تشى بأنه كان ربْعة ، يميل إلى الامتلاء .. يؤكد ذلك ما عُرف عنه من أنه كان شغوفًا بألوان الطعام ، وكان يعشق بصفة خاصة جدًا فاكهة المانجو ، والتى منعه الأطباء من الإكثار منها ، بسبب ما كان يعانيه من الربو والحساسية التى أصابته باختناق فى أواخر حياته لازمه حتى الوفاة ..

وكان إقبال يُدخن « الهُكّة » ، وهى « النرجيلة » أو « الشيشة » عندنا ، وتجدها بجوار سريره جاهزة ! ..

وكان يلازم غرفة نومه كثيرًا ، وغالبًا ما يتناول طعامه بها ، ويقوم على خدمته « على بِكش » خادمه الخاص .

وقد بدأت مصر ، ومعها العالم العربى ، تعرف إقبال منذ ثلاثينات القرن الحالى ، وذلك من خلال ترجمة بعض دواوينه وأشعاره إلى اللغة العربية .

وأول كتاب يصدر عن إقبال وسيرة حياته بالعربية ، كان للمرحوم عبد الوهاب عزّام ..

وإذا أنت فكرت أن تقرأ كتابًا عن إقبال ، فسوف تصاب بالحيرة .. فقد صدر عنه حتى الآن أكثر من ألفين عنوانًا باللغات الحية ! .. والاختيار أمامك .





وليام شكسبير

(١٥٦٤-١٦١٦)

جوهرة الأدب

فى جميع المكتبات .. وبكافة اللغات .. تصطف مجلدات ، وكتب مُجمعة أو مفرقة ، تحمل اسم شكسبير .. وكل مسرح .. فى لندن .. أو موسكو .. أو روما .. أو القاهرة .. أو أية عاصمة أخرى فى العالم ، يعتز بأن يرفع ستاره عن مسرحية من مسرحيات شكسبير .. وكل مجلس للأدب والثقافة ، يتمثل بشيء من شعره ، أو بحكمة ، أو بأى شيء مما خلّفه شكسبير .. للناس فى جميع البلاد ، ولكل الأجيال .. وبعد اسخيلوس وسوفوكليس ، ويوربيديس ، وأريستوفانيس .. وهم أعمدة المسرح اليونانى ، والعالمى أيضاً ، : قبل الميلاد ، لا نجد من يقف بعدهم شامخاً فى عالم المسرح ، إلا شكسبير ، فى القرن السادس عشر بعد الميلاد .. ثم تفوق شكسبير عليهم ، وعلى من جاء بعدهم من كتاب المسرح ، حتى الآن ..

ولم يحظ أديب ، أو كاتب ، أو شاعر ، بمثل ما حظى به شكسبير ، من شهرة ، وعظمة ، وتكريم ، ونقد ، فى العالم كله ..

وقد ولد وليام شكسبيرWilliam shakespeare فى ٢٦ إبريل عام ١٥٦٤ ، فى بلدة « ستراتفورد » بمقاطعة « يوركشاير » بانجلترا .. ووالده هو « چون شكسبير » ، الذى اختلفت الروايات فى تحديد مهنته ، بين الاشتغال

بالزراعة ، والاتجار فى الصوف والحبوب والجلود والأخشاب ، أو أنه كان صاحب محل جزارة ، يعاونه فيه ابنه « يقطع اللحم ويقرض الشعر » ، وفى بعض المراجع أنه كان رئيساً لمجلس المدينة وقاضياً للمصالحات ..

أما والدته فهى « مارى آردين » ..

ولم يُعرف على وجه التأكيد شىء ثابت بالنسبة لأيام صباه وتعليمه ؛ ولكن المتفق عليه أنه تزوج فى سن الثامنة عشرة من « آن هتواى » ، فى ٢٨ نوفمبر ١٥٨٢ ، فأنجبت له : « سوزان » ، ثم توأمين : « هامنت » و« جوديت » ..

كانت الطبيعة مدرسته ، والكتب أساتذته .. وراح ينظم الشعر منذ صباه ويترنم به ، ويختلق المناسبات للخطابة والتمثيل ، ويهرع لمشاهدة الفرق الجوالة التى كانت تمر ببلدته لتقديم عروضها ..

وفى عام ١٥٨٤ ، اختفى شكسبير عن بلده فجأة .. وقيل : إنه انضم إلى إحدى فرق التمثيل المتجولة .. ولم يُعرف إذا كان قد أخبر أهله بما عزم عليه ، أو أنه كان على صلة بأسرته أثناء غربته .. كما أن اسمه لم يظهر فى القوائم الرسمية التى تضم أسماء الممثلين حتى عام ١٥٩٢ ..

وهناك من يقول : إن شكسبير احترف مهنة رعاية الجياد التى يفد أصحابها بها إلى المسرح ، حتى يعودوا لتسلمها بعد انتهاء التمثيل .. ويقول آخرون : إنه كان يؤلف مسرحيات للفرق الصغيرة التى كان يعمل بها ويتقاضى أجراً عن المسرحية أكثر من أجره عن التمثيل .. وعلى أية حال ، فالمتفق عليه أنه كان فى لندن ، وفى رحاب المسرح ، وأنه كتب أول مسرحية معروفة عام ١٥٩٠ ..

وعندما توقفت مسارح لندن ، من عام ١٥٩٢ حتى عام ١٥٩٤ ، بسبب الاضطرابات ، ثم بسبب انتشار وباء الطاعون ، تفرقت الفرق المسرحية ، وراحت تجوب الريف .. وكان شكسبير فى هذه العطلة يدرس اللغات : الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، ويقرأ الأدب اليونانى ، والحكايات والأساطير القديمة ، ويكتب مسرحياته الناضجة ، وقد شحذت مواهبه ، وبرزت عبقريته .. وكذلك ظهرت مواهبه التمثيلية ، وإن لم تَرق إلى مستوى كتاباته ، فكان خلال خمس عشرة عاماً أحد نجوم فرقة « شمبرلن » ، إحدى الفرق المشهورة فى عهد الملكة إليزابيث .. وقدمت هذه الفرقة عروضها فى لندن بين عامى ١٥٩٤ و ١٦٠٣ ، وبخاصة على مسرح « شورديتسن » ، الذى كان يملكه ويديره والد الممثل الأول فى الفرقة « ريتشارد بورباج » ..

وكان شكسبير يكتب بمتوسط مسرحيتين كل عام ، وكان دخله السنوى يبلغ ٦٠٠ جنيهاً ، وكان ذلك يعد دخلاً هائلاً وقتها ..

وفى عام ١٦١٠ ، عاد شكسبير إلى موطنه « ستراتفورد » ، عودة الجندى المظفر بعد الحرب ، وعاش عيشة رغدة بين جيرانه الأثرياء ، حيث كانت له ضيعة وبيت كبير وحديقة مثمرة ..

وعلى الرغم من عشرات الكتب التى صدرت عن وليم شكسبير ، فإن المرحلة الأولى من حياته ظلت خافية ، ولم يكتب عنها شئ مؤكد قط ، كما أن شكسبير لم يكن معروفاً بحق ، ولم تكتشف قدراته وإمكاناته أثناء حياته ؛ ولكن بعد موته وصدور مؤلفاته وذيوعها ، بدأت شهرته تدوى ، حتى أصبح أعظم شعراء الإنجليز وأقدر كُتاب مسرحهم .. بل أغنى جوهرة تعتز بها بريطانيا .. ومن أشهر المسرحيات التى أبدعها هذا الشاعر النابغة : « هنرى الرابع » و « ريتشارد الثالث » و « الأخطاء » و « ترويض النمرة » و « سيدان من

فيرونا » و« روميو وچوليت » و« عناء الحب الضائع » و« ريتشارد الثانى » و« حلم ليلة صيف » و« الملك چون » و« تاجر البندقية » و«جعجعة بلا طحن» و« هنرى الخامس » و« يوليوس قيصر » و« كما تريدها » و« الليلة الثانية عشرة » و« هاملت » و« زوجات وندسور المرحات » و« ترليوس وكرسيده » و« كله خير الذى ينتهى بالخير و« العين بالعين » و« عطيل » و« الملك لير » و« ماكبث » و« أنطونيو وكليوباترا » و« تيمون الأثينى » و« بركليس » و« سِمبلين » و« قصة شتاء » و« العاصفة » و« سيدة من كيزمن » ..

لقد استطاع شكسبير بأسلوبه الشعرى أن يعبر عن التجارب الإنسانية تعبيراً لا يقوى عليه غير الشعر ، ولا تؤديه سوى الصورة الشعرية ، فالمواقف الدرامية المؤثرة هى التى يجئ التعبير فيها شعراً يستهوى مشاعر الجماهير ، وهى أقدر على تعميق مغزى المسرحية ..

وقد عالج شكسبير كل فنون وألوان الكتابة المسرحية فى تمكن وصل إلى حد الإعجاز ، وجعل منه بحق سيد الدراما الشعرية .. فقد كتب المسرحيات التاريخية ، والكوميدية ، والتراچيدية ..

وكان « الإنسان » موضوعه الأساسى فى كل ما كتب ، وسواء أكان مصدر إلهامه أسطورة قديمة ، أم حادثة تاريخية ، أم موضوعًا فلكلوريًا ؛ فإنه كان يبحث عن الإنسان ، والمادة الإنسانية الحية ، والمعانى الطيبة ، والدروس المستفادة ..

وكان شكسبير قديراً على خلق الشخصيات ، وعرض الأحداث عرضاً متماسكًا متكاملاً ..

أما حواره فيدل على فهم عميق فى المواقف كافة ..

ويبدو أن شكسبير نفسه لم يدرك فى صحوة العمر أنه شخص مهم ، أو أنه يكتب مسرحيات جديرة بالذيوع والانتشار والخلود ، وربما لم تقع أعماله فى أيدى خبراء مقدرين حتى يقولوا فيها كلمة الحق .

ولم تُعرف حقيقة صنعه وعبقريته إلا بعد موته ، ولما أمعنوا النظر فى تراثه ، وبهرتهم نفائسه ، وأدركوا افتقادهم لرجل نادر وكنز ثمين ، اندفعت حماسة الإنجليز وحُسن تقديرهم لعظمائهم ، يتلمسون الوسيلة لإحياء ذكراه ، وتكريم عبقريته على الصعيدين الرسمى والشعبى .. وقد أخذتهم الحيرة ، وامتد بهم البحث ؛ لأنهم لم يجدوا الأسلوب الملائم ولا التكريم الذى يفى بقيمة الرجل ، فإن شكسبير بدا أعلى من أى تمثال ، وأغلى من أى تذكار ..

فلقد فكروا فى الضريح .. والمتحف .. والتمثال .. غير أن شكسبير كان أعلى هامة وأكبر مقاماً ، وبقيت مؤلفاته تشكل أعلى بناء يمكن أن يبلغه البصر .. أو على حد قول الشاعر الإنجليزى « چون ملتون » : « ما شكسبير بحاجة إلى أحجار فوق أحجار ، يقيمها الناس فى قرن كامل من الزمان لكى تضم رفاته ، وما هو بحاجة لأن يُسجى فى هرم يبلغ ارتفاعه عنان السماء .. أنت يا ابن أغلى الذكريات .. ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الساذج إزاء اسمك العظيم ، بعد أن أقمت لنفسك من إعجابنا تمثالاً لا يبلى ؟ » ..

وتساءل شاعر فرنسا العظيم « فيكتور هيجو » : « إن التمثال الذى أقامه لنفسه على قاعدة انجلترا كلها هو خير تمثال .. ليس شكسبير فى حاجة إلى الهرم .. تكفيه مؤلفاته .. ما الذى سيخلده الرخام ؟ .. وما الذى يستطيعه البرونز ؟ إن شكسبير هو روح العبقرية العميق » ..

وكون أن شكسبير لم تعرف قيمته فى حياته أمر مؤسف بلاشك ، برغم أن عصره كان من أزهى عصور بريطانيا وأكثرها ازدهاراً بالنسبة للشعر

والتمثيل .. فقد كـانت الملكـة « إليزابيث » تقرب الشعراء وتشجعهم ، وتحضر التمثيليات ، وتكافئ الممثلين ..

ويغلب على ظن الكثيرين أنها كرمت شكسبير ، وأنه كان أيضًا موضع تكريم الراعين للفرق التمثيلية من الأمراء وأصحاب النفوذ ..

هذا ولم يتحدث العالم عن عبقرية شكسبير إلابعد عام ١٧٠٩ ، حين بدأ المدعو « نيكولاس » فى عمله المأثور ، وهو نشر مسرحيات شكسبير ، فأحدث هزة إعجاب واندهاش فى جميع الدوائر والمجالس ..

وقد توفى شاعر الإنجليز العظيم فى ٢٣ إبريل عام ١٦١٦ ، فى الثانية والخمسين من عمره ، ودُفن فى كنيسة عند مسقط رأسه « ستراتفورد » .





نابليون بونابرت

(١٧٦٩ - ١٨٢١)

سيف فرنسا

إنه أعظم قائد عسكرى عرفه العالم بعد الإسكندر الأكبر ، وشهدت له ساحات القتال على امتداد تسع سنوات بالعبقرية والنبوغ والقدرة الباهرة على تحريك الجيوش وتوجيه الضربات القاصمة إلى العدو ، واتخاذ القرار الصائب فى أشد اللحظات حرجاً وصعوبة ..

إنها قصة حياة « المعجزة » ، و« رجل الأقدار » و« سيف فرنسا » ، « النسر » ، « الساحر » .. نابليون بونابرت ..

ولد نابليون فى ١٥ أغسطس عام ١٧٦٩ ، فى إجاكسيو ، بجزيرة كورسيكا فى فرنسا ، وكان الابن الرابع لوالده المحامى « كارلو بونابرت » ، وتلقى تعليمه الأول فى « أتون » ، ويدأ منذ التاسعة يتعلم حسب نظام التعليم الفرنسى ، والتحق بالكلية الحربية فى « بريين » لمدة خمس سنوات ، ثم انتقل إلى الأكاديمية الحربية بباريس وتخرج منها ضابط مدفعية ، ولم يكتف نابليون بالعلوم العسكرية ؛ ولكنه كان مولعاً بدراسة التاريخ ، كما أنه قرأ « فولتير » و« چان چاك روسو » و« بلو تارك » .. وكان معجباً بشخصيات « شارلمان » و« الإسكندر المقدونى » و« يوليوس قيصر » ..

ولا يُعرف عن طفولة نابليون إلا القليل ، فجزيرة كورسيكا - التى ولد بها - جزيرة صغيرة ، معظم سكانها فلاحون أميون ، كانوا ثائرين على الفرنسيين .. ومن النادر الذى عُرف عن طفولة نابليون وصباه أنه لم يكن تلميذاً بارعًا ؛ ولكنه كان ذا ذاكرة عجيبة ، وظل طوال حياته قادراً على أن يتذكر كل شئ قرأه أو سمعه ، وقد برع فى وضع تصميمات للحصون والتخطيط لتمرينات عسكرية ، فقد كان متفوقًا للغاية على جميع الطلاب الآخرين .. وقد عُين ملازماً ثانٍ فى كتيبة المدفعية « لافير » فكانت تلك بداية حياته العسكرية الرائعة ، التى كان فيها أعظم قائد عسكرى فى عصره ..

وقد خاض نابليون الحرب الأهلية فى كورسيكا ، وتولى قيادة المدفعية فى حصار « طولون » وأجلى الإنجليز عنها ، وعُين قائداً للجيش الفرنسى فى إيطاليا وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وهزم السردينيين فى « ديجو » ، وعقد معهم صلح « تشيراسكو » وانتصر على النمسويين فى « لودى » وغزا « مانتوا » و« كاستيليون » و« ريفولى » وانتصر مرة أخرى على النمسويين فى « أركولا » ، وعقد معهم صلح « كامبو فورميو » فى أكتوبر ١٧٩٧ ، وعاد بعدها إلى باريس ، فاستقبله الشعب استقبال الغزاة الفاتحين ..

وكان نابليون يحلم بامبراطورية فى الشرق ، ليتحدى بريطانيا ، فجهز حملة للاستيلاء على مصر فى مايو ١٧٩٨ ، وكانت حملته تاريخية وعلمية ..

وتحرك أسطوله سراً ، فلم يفطن إليه الأسطول الإنجليزى ، واحتل « مالطة » فى ٩ يونيو ، ودخل مصر فى ٢٣ يونية ، حيث اشتبك مع المماليك فى عدة مواقع صغيرة ، واحتل نابليون مصر ، وشرع فى إعادة تنظيمها ، ونجحت البعثة العلمية المصاحبة له فى وضع خرائط تفصيلية لمصر ، ومعلومات علمية وثقافية كبيرة الفائدة ، وتم اكتشاف حجر رشيد ، الذى أدى إلى حل رموز اللغة الهيروغليفية ، كما تمت دراسة تربة مصر وچيولوچيتها ..

وعندما علم الإنجليز بوجود نابليون فى مصر ، هو وقواته ، قاموا بتحطيم الأسطول الفرنسى فى الأسكندرية ، فقطعوا الإمدادات والاتصالات بين نابليون وفرنسا .. واضطر نابليون إزاء ذلك إلى مغادرة مصر ، سراً ، وترك جيشه بها ، وذلك فى عام ١٧٩٩ .. أما جيشه فقد ترك مصر كلية عام ١٨٠١ .. لقد فشلت حملة نابليون على مصر عسكرياً ولكنها لم تفشل تاريخياً ولا علمياً ..

وفى فرنسا وجد نابليون أن الشعب الفرنسى ما يزال يذكر انتصاراته الأوربية ، ولا يذكر شيئاً عن هزيمة أسطوله فى الأسكندرية .. وبعد شهر اشترك نابليون فى انقلاب عسكرى مع الآخرين ، وأدى هذا الانقلاب إلى حكومة جديدة ، وإلى أن أصبح نابليون القنصل الأول (١٧٩٩ - ١٨٠٤) فى فرنسا ، وكان القوة الرئيسية ، فهو الذى يعين الوزراء والقواد والمديرين ، وراح يمهد للحكم المطلق .. فقد أصدر دستوراً جديداً فى فرنسا . وهذا الدستور قد نجح فى الاستفتاء الشعبى ؛ إلا أنه لم يكن إلا واجهة للحكم الديكتاتورى الذى يريده نابليون .. وسرعان ما تفوق على جميع خصومه ..

وقاد نابليون حملة ضد النمسويين عام ١٨٠٠ ، وحقق انتصاراً باهراً فى « مارنجو » ثم فى « هوهتليدن » ، وعقد معهم صلح « لو نفيل » فى فبراير ١٨٠١ ..

وفى ٢٥ مارس عام ١٨٠٢ عقد مع انجلترا صلح « اميان » ، ومنح أوربا وفرنسا السلام لأول مرة منذ عشر سنوات من الحروب المتصلة ..

وفى ديسمبر عام ١٨٠٤ أعلن نابليون الإمبراطورية ، وتوج نفسه فى كنيسة نوتردام ، فى حضور البابا بيوس السابع .. وكانت سياسته تؤكد دائماً على أنه حامى الثورة الفرنسية .. وقد قام بتنصيب ثلاثة من إخوته ملوكاً على

عرش دول أوربية أخرى ، مما أثار غضب كثير من أنصار الجمهورية الفرنسية الذين رأوا أن نابليون قد خان الثورة الفرنسية .. ولكن المشاكل الخطيرة التى واجهت نابليون قد جاءت من معاركه الضارية مع القوات الأجنبية ..

ثم بدأت مناورة بين نابليون والإنجليز ، فأعد أسطولاً لغزو إنجلترا ، وجيشاً كبيراً لقهرها غير أن الأسطول الإنجليزى بقيادة « نلسون » أفقده أمله الكبير بعد معركة الطرف الأغر أو « ترافلجار » عام ١٨٠٥ ، والتى دمر فيها الأسطولين الفرنسى والأسبانى ..

ونجحت إنجلترا فى تكوين حلف كبير يضم روسيا والنمسا والسويد ونابولى ، غير أن نابليون قبل أسبوع من الهزيمة البحرية فى الطرف الأغر ، استطاع أن يحرز انتصاراً كبيراً على النمسويين فى « أو لم » ، ودخل فيينا ، ثم هزم الجيشين المتحالفين ، البروسى والنمسوى فى معركة « أوستر لتز » ، والتى تعتبر أعظم معارك نابليون ، وبعدها هزم البروسيين أيضاً فى « ينا » و « أورشتات » و « فريد لاند » ، وعقد صلحاً مع ألكسندر الأول ، إمبراطور روسيا فى « تيلسيت » ، واتفقا على أن لروسيا السيادة فى الشرق ، ولفرنسا السيادة فى الغرب ..

وقد استولى على أسبانيا بحصوله على تنازل ملكها « شارل » يوم ٥ مايو عام ١٨٠٨ ، وتنازل ولى عهده « فرديناند » فى اليوم التالى .. ولكن الشعب الأسبانى ثار ، وقرر الحرب السرية ضد الفرنسيين ، وعاودت النمسا القتال مرة أخرى ضد نابليون ، فانتصر فى معركة « أوجرام » فى ٦ يوليو عام ١٨٠٩ ، وبحلول عام ١٨١٠ أصبح نابليون أقوى رجل فى أوربا ، وصار وريث « شارلمان » فى سيطرته على أعظم رقعة من الأرض ..

وفى عام ١٨١٢ ، نقض امبراطور روسيا اتفاقية « تيلسيت » .. وعلى الفور قاد نابليون ٤٥٣٠٠٠ جندى ، وعبر نهر « نيمن » فارتد الروس ، وامتدت

خطوط نابليون حتى وصل إلى مشارق موسكو ، وحدث اشتباك دموى رهيب فى « بورينو » ، وكان خصم نابليو هو المارشال « كوتوزوف » .. وانسحب الروس ، وأخلوا موسكو وأحرقوها ، ورفضوا كل عروض نابليون للصلح ، فاضطر إلى الانسحاب والعودة إلى فرنسا ، بعد أن مكث فى موسكو خمسة أسابيع ؛ ولكن قراره ذاك جاء متأخراً ، فقد تحالفت ضده عناصر عديدة : الجيش الروسى الذى بدأ يقاتل ، والجليد الذى غطى جبهات القتال فى موسكو ، ونقص العتاد والمؤن الفرنسية ؛ ولذلك كان الانسحاب رهيباً ، فقد عاد وحوله مالا يزيد عن ١٠ آلاف محارب فقط ، ولم تكن هزيمة فحسب ، وإنما كارثة كبرى ..

وفى عام ١٨١٣ ، أحرز نابليون انتصارات محدودة ضد البروسيين فى معركتى « لوتزن » و« بوتزن » محاولاً استنهاض الروح المعنوية ، ثم انتصرت قوات التحالف الأوربى على نابليون فى معركة « الأمم » فى ١٩ أكتوبر ١٨١٣ ، حتى تم القضاء على الجيش الكبير ، والاستيلاء على باريس ، وفى ٦ إبريل عام ١٨١٣ تنازل نابليون عن العرش .

وبموجب معاهدة « فوتنبلو » فى ١١ إبريل ١٨١٣ أصبح نابليون امبراطوراً منفياً فى جزيرة « إلبا » بالقرب من الشاطئ الإيطالى ، وفى معيته ٤٠٠ حارس ، وفى جعبته ٢ مليون فرنك » وكان قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره ..

وأمضى نابليون مائة يوم فى الجزيرة .. وطار « النسر » من القفص واستمر يقفز من عش إلى عش ، حتى استولى على أبراج كنيسة نوتر دام فى باريس يوم ٢٠ مارس .. فاستقبل الشعب والجيش بطل فرنسا وإمبراطورها بحماس بالغ ، وسرعان ما جهز جيشاً لدفع أعداء فرنسا عن حدودها ، وأحرز انتصاراً سريعاً فى معركة « لينى » فى بلچيكا ؛ ولكن الدول الأوروبية الأخرى قد أعلنت عليه الحرب ، وبعد مائة يوم من حكمه هذا لقى هزيمته النهائية ،

والضربة القاضية فى معركة « واترلو » ، ببلچيكا عام ١٨١٥ ، ويعد هذه المعركة سجنه الإنجليز فى جزيرة « سانت هيلانة » وهى جزيرة صغيرة فى جنوب المحيط الأطلنطي ، وظل مقيماً بها ست سنوات إلى أن توفى مساء يوم ٥ مايو من عام ١٨٢١ ، وهو فى الثانية والخمسين من العمر ..

لقد ترك نابليون أكبر الأثر فى فرنسا والفرنسيين ، ليس فى عهده فقط بل وبعد ذلك بكثير ، بالرغم من كرهه لهذا الشعب فى صغره وشبابه ؛ لأنه قد احتل جزيرته الصغيرة - كورسيكا - التى ولدته بها أمه « ليتيزيا » ، وكان يفكر فى شبابه فى تحرير بلده من الاحتلال الفرنسي . حتى إنه فى يوم من الأيام قال له أحد زملائه الفرنسيين ، الذين كان يتعلم معهم فى مدرسة النبلاء فى « بريين » ، : « إذا كنتم أنتم يا أهل كورسيكا شجعانًا كما تقولون ، فلماذا تنهزمون؟! » فرد عليه نابليون قائلاً : « لقد كان الواحد منا يقابل عشرة منكم ، انتظر حتى أكبر أنا وسأقوم بطردكم أيها الفرنسيون ! » .

وبالفعل تم تحرير بلاده ؛ ولكنه فشل فى أن يصبح زعيما لها ، فأصبح زعيمًا لفرنسا ! ..

وفى حفل تتويجه أميراطوراً لفرنسا ، وبحضور البابا بيوس السابع ، فوجئ الذين حضروا الحفل بنابليون لحظة التتويج يقوم بتناول تاج الامبراطورة ويضعه على رأس زوجته ، ثم يضع تاج الامبراطور على رأسه ، وذلك حتى لا يركع أمام البابا ! .. وكان نابليون يرتدى زيًا أقرب إلى أزياء أباطرة الرومان القدماء .. وعندما جلس على العرش ، همس فى أُذن شقيقه : « چوزيف » : « آه لو أُتيح لوالدى أن يرى هذا » ..

وقد نصّب نابليون نفسه « امبراطوراً » لفرنسا ، وليس « ملكًا » .. لأنه على حد قوله : « إن لقب الملك أصبح باليًا .. فهو يحمل معه أفكاراً عديمة الجدوى .. ولن يجعل منى سوى وريثًا لأمجاد رجال موتى .. إننى لا أريد أن

أكون عـالة على أسـلافي .. أمـا لقب الإمـبـراطور فـهـو أعظم من لقب الملك .. ومعناه ليس واضـحًا تمامًا فهو لذلك ينشط الخيال ! » ..

وكــان نابليـون قـارئًا ممتـازًا ، فى أكـاديميـة باريس ، كـان همـه الأول القراءة ، وخاصة السيّر التاريخية لعظماء الرومان وأباطرتهم .. تلك السير التى كتبها المؤرخ اليونانى « بلو تارك » Plutarch : وكان نابليون يلتهم هذه السير التهامًا ويترك لخياله العنان فى التفكير فى أعمال هؤلاء الرجال العظماء .. وكأى شاب صـغير فى ذلك العـهد ، كـان نابليـون يهتم بالشـئون السياسيـة والاجتماعية ، فانكب على قراءة كتاب الجمهورية لأفلاطون ، وتاريخ انجلترا ، ودساتير فارس واليونان ، وفتوحات فريدريك الأكبر ، وتاريخ التتار والترك ، وتاريخ مصر ، وتاريخ الهند ، وتاريخ فرنسا ، وآراء ميكيا فيللى ، وميرابو ..

وكان نابليون يكتب مذكرات عن كل كتاب يقرأه فى كراسـة ، وقد بلغت هذه المذكرات عند طباعتها ٤٠٠ صفحة من الحجم الكبير ! ..

ومن بين هـذه المذكرات ، مـا نقله نابليون عن مصر بالذات ، حيث قال : « بالنسبـة لموقع مـصـر بين بحرين ، وفى الحقيـقة بين الشرق والغرب ، فإن الإسكندر الأكبر اختار تأسيس عاصمة امبراطوريته فى هذه البلاد وجعل مصر مركزًا للتجارة العـالمية .. إن هذا الفـاتح العظيم قد رأى أن الطريقـة العملية لادماج كل فتوحاته فى دولة واحدة يتم عن طريق استخدامه لمصر ، التى خُلقت لتكون نقطة اتحاد بين أفريقيا وأسيا وأوربا » ..

وعندما غزا نابليون مصر ، وقف أمام أبى الهول وهتف قائلاً : « هنا وقف الإسكندر .. وهنا وقف قيـصـر .. وها أنذا في نفس المكان الخـالد .. أيهـا الجنـود : « إن أربعين قرنًا تطل عليكم من فوق الأهرام » ..

وأثنـاء وجـوده بمصـر ، بعث رسالة إلى أخـيه « چوزيف » جـاء فيهـا :

« لا يوجـد بلـد في العـالم أغنـي من مـصـر في الذرة والأرز والخـضـر واللحـــوم » ..

وقد أحب نابليون « چوزفين » حبًا قويًا ، وتزوجها ، وكان عمرها وقت ذلك ٣٣ عامًا وكان عمره ٢٧ عامًا ..

وقد فكر نابليون فى أن يكون له وريث من صلبه ، يعتلى عرش فرنسا من بعده ، ولم تنجب له چوزفين أولاد .. ونصحـه البـعض بأن يطلقهـا .. فطلقهـا بالفـعل فى يناير عـام ١٨١٠ ، بعـد أن قـال : « إنه قـد يكون من مـصلحـتى أن أطلب الطلاق .. ولكن بأى حق أتخلص من زوجـة طيبـة لا لشـىء إلا لأنى قـد أصبحت رجلاً أعظم مما كنت عندما تزوجنا ؟! » ..

وتزوج نابليـــون بعـــدهــا من « مـــارى لويز » Marie Louise ، ابـنـة الإمبـراطور « فرانسيس » فى إبريل من نفس العام .. ورزق منها بوريث للعرش فى ٢٠ مارس ١٨١١ ..

ولم يحدث فى التـاريخ أن رجلاً تحكّم فى شئون جيشه وبلده وأبناء جيله وأحدث تأثيراً بالغًا فى مصائر الأجيال التى جاءت بعده ، كما فعل نابليون ..

ونجـاحـه الأكـبـر لم يكن فى نظرتـه الاسـتـراتيـچـيـة ، ولا فى خططه التكتيكية ؛ ولكن فى أنه استطاع أن ينقل جيشه من جيش مرتزقة جهلة إلى جيش أحرار متوثبين متعطشين إلى النصر والمجد ..

وكان نابليون يحب أن يخاطب الشعب قبل أن يخوض معاركه الظافرة ، لينقل آراءه وأفكاره إلى المواطنين .. كان يحب أن تُلقى المنشـورات قبـل أن تنـطلق قـذائف المدافع ، فـيـهئ الأذهان لمبـادئه ، ويكسب التـأييـد المادى والمعنـــوى ..

وقد ترك نابليون كثيراً من الأقوال المشهورة ، والحكم المأثورة ، التى تُردّد حتى الآن فى الأكاديميات العسكرية والدوائر الثقافية والعلمية .. كما ترك لنا كثيراً من الرسائل الغرامية التى كتبها لجوزفين بنفس الحرارة التى كتب بها المذكرات العسكرية ..

وأثناء حكم نابليون أجرى إصلاحات جوهرية فى فرنسا وفى النظام التشريعى بصفة خاصة ، فقد أصلح النظام المالى والقضائى ، وأنشأ بنك فرنسا ، وجامعة فرنسا وجعل الإدارة مركزية .. وعلى الرغم من أن هذه الإصلاحات كان لها أثر قوى على فرنسا نفسها فإن أثرها على العالم كان ضئيلاً .. غير أن أحد هذه الإصلاحات كان له أثر عالمى قوى ضخم ، ذلك هو قانون أو دستور نابليون .. فهذا الدستور قد قنن كل مبادىء الثورة الفرنسية ، ونص على أن الناس جميعًا متساوون ، بغض النظر عن المولد والعنصر والجنس ..

وهذا الدستور كان معتدلاً ومكتوبًا بإيجاز وبمنتهى الوضوح ، ولم يطبعه فى فرنسا وحدها ؛ بل وفى العالم كله ..

لقد كتب مشاهير الكُتاب والعسكريين والمؤرخين مئات الكتب عن نابليون فى نواح متعددة من حياته الحافلة ، وذكروا عنه الكثير من المزايا والخصائص الكثيرة ، فقد كانت له طاقة هائلة على العمل الشاق ، وكان عقله يعمل بسرعة خارقة ، وقلبه يخفق بحب المجد .. وكان له دون باقى القادة والحكام والعظماء أكبر عدد من الرسوم والتماثيل والمقطوعات الموسيقية ، وفى مقدمتها السيمفونية السابعة لبيتهوفن .. وكان طموحًا .. تمتد أحلامه إلى مملكة شارلمان ، وإمبراطورية الإسكندر الأكبر ، وانتصارات يوليوس قيصر ..

وكان رجل حرب بمعنى الكلمة ، ويعرف صنعته جيداً ، وينظر بفراسة فى ساحة المعركة ، ويؤثر فى جنوده ، ويسرع فى تقدير الموقف ، ويحدد فى سرعة فائقة وقت العملية الحاسمة ومكانها ..

وكان مولعًا بتنظيم الدولة ، وسن القوانين المناسبة لمجتمعها ، غير أنه لم يكن مقتنعًا بالانتخابات والرأى العام ، وإنما كان مقتنعًا برأيه رئيسًا للدولة ، وقائدًا للجيش ، وبطلاً للشعب ..

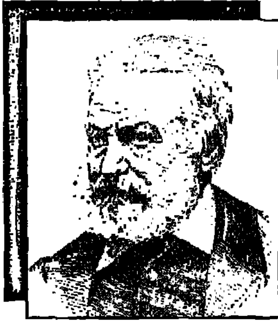
وهو الذى باع مساحة من الأرض إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، هذه الأرض هى التى أصبحت فيما بعد ولاية لويزيانا ، وكان لذلك أثر كبير ، فقد أصبحت الولايات المتحدة « دولة قارة » ..

ونابليون كان مغرورًا ومصابًا بجنون العظمة ؛ ولذلك قارنوه بهتلر .. ولكن هناك فرقًا هائلاً بين الرجلين .. فبينما كان هتلر مدفوعًا بفلسفة عنيفة ، كان نابليون انتهازيًا طموحًا .. كما يقال : إن عدد الفرنسيين الذين ماتوا فى حروب نابليون قد بلغ نصف مليون ؛ بينما عدد الجنود الذين لقوا مصرعهم فى حروب هتلر قد بلغ ثمانية ملايين ! ..

وفى منفاه الأخير .. سانت هيلانة .. توفى نابليون ، وترك الدنيا ليشيع ذكره بعد ذلك على كل لسان .. وكان سبب الوفاة سرطان المعدة .. أما آخر كلماته فى الحياة فهى :

« أطلب أن يستقر رفاتى على شاطئ السين ، بين الشعب الفرنسى الذى أحببته كثيرًا .. إننى أموت قبل أوانى .. لقد قضى علىّ الإنجليز .. يارب : الأمة الفرنسية .. ابنى .. الجيش » ..





ڤيكتور هوجو

(١٨٠٢ ـ ١٨٨٥)

عظيم فرنسا

لقد أراد أحد الأمريكيين المعجبين بالشاعر « هوجو » أن يعرف مكانته من العالم بأسره ، فأرسل إليه كتاباً على مظروفه هذه العبارة : « إلى أشعر من فى الأرض » ..

وحُمل الكتاب إلى أوربا ، وظل يتنقل بين بلادها ، وتسلمه شاعر بعد آخر ؛ ولكن لم يجرؤ أحد منهم على قبوله .. ووصل الكتاب أخيراً إلى فرنسا : فسلمه ساعى البريد إلى الشاعر « لامارتين » ، فقال له بعد أن قرأ العنوان : « أرسلوه إلى ڤيكتور هوجو » ..

ولكن هوجو رده ثانية إلى لامارتين .. وظل الكتاب حائراً بين الشاعرين حتى سئم هوجو كثرة الأخذ والرد ، ففتحه ، فإذا به موجه إليه ! ..

وڤيكتور هوجو V. Hugo هو الشاعر الروائى والفيلسوف والمفكر الفرنسى، الذى أثرى الأدب العالمى عامة ، والأدب الفرنسى فى فترة ازدهاره ، بنتاجه الفنى الرفيع ، وخلف لنا أدبًا وفكراً خصباً خالداً ، يتسم بالنزعة الإنسانية الواضحة ، وبالاهتمام بقضايا البشر ، فجاءت كتاباته نابضة بمكنون الإنسان ..

وقد ولد هوجو فى « بيزانسون » بفرنسا عام ١٨٠٢ ، ورافق فى صباه والده الجنرال فى جيش نابليون إلى « نابولى » و« مدريد » : وقد تركت هذه الرحلات التى كانت تصحبها الاستقبالات والاحتفالات الرسمية الفخمة تأثيراً حيًا فى فكر هوجو ، وذلك على النقيض تماماً من الحالة السيئة التى وجدت الأسرة نفسها فيها بعد سقوط نابليون ..

وفيما عدا ثلاث سنوات قضاها هوجو فى إحدى مدارس باريس ، فإنه لم يحظ بدراسة حقيقية منتظمة .. وكان ذكيًا فى الرياضيات ، وشديد الشغف بالمطالعة ..

وكانت والدته هى مدرسته الأولى ، فقد كان هوجو شديد الالتصاق بها ، وقد أورد فى مذكراته : « كان لى فى طفولتى الناعمة الشقراء ثلاثة أساتذة أخذت عنهم ، وهم : حديقة المنزل ، وراهب عجوز ، ثم أمى » كما تلقى عنها شغفه بالقراءة والاطلاع وحرية التفكير ، إذ كانت هى نفسها مولعة بالاطلاع وتأخذ بالحرية فى تنشئة أولادها ..

وقد تعرف الابن – هوجو – عن طريق الأم ، إلى أهم كتّاب القرن الثامن عشر ، وفى مقدمتهم (فولتير) و (چان چاك روسو) و (ديدور) .. وكلهم من رواد الثورة فى الأدب الفرنسى ، ومعه مهدوا لقيام الثورة الفرنسية الكبرى ، التى قلبت أوجه الحياة فى فرنسا ..

وكان لهوجو أخوان آخران من أمه تلك هما « ابيل » و« أوچين » ..

وكان أبوه يحب سيدة أخرى ، ثم تزوجها ، وحدثت بسبب ذلك خلافات عائلية عانى منها هوجو كثيراً ، كما عرف أيضاً ضيق العيش بسبب والده المبذر الذى كان يعول زوجتين ! ..

وقـد أرسل هوجـو ، وهو فى الرابعة عـشـرة من عـمـره إلى الأكـاديميـة الفـرنسيـة قـصـيـدة تتـألف من ثلاثمائة بيت من الشـعـر : فـأجـازته الأكاديمية بالذكر الطيب ، واكتفت بتسـجيل اسمـه بين الشعراء وهى فى شك من أمـر هذا الفتى ! ..

ثم أخذت قصائده الأخرى فى التتابع ، وأثارت الإعجاب ، حتى أطلق عليه الشاعر الفرنسى الكبير (شاتوبريان) لقب « الصبى النابغة » ..

ودفعه سوء الأحوال المعيشية إلى أن يعتمد على قلمه ، فأخذ يمدح النظام الملكى وقد عاد إلى الحكم ، وعلى رأسه لويس الثامن عشر ، فتوالت عليه المنح المالية من جانب الملك وحكومته ، وكان فى أشد الاحتياج إليها ..

وأصـدر هوجـو مع شـقيـقه صـحيـفة دورية اسمـهـا «المحـافظ الأدبى » ، تتضمن إنتاجه الأول فى الشعر وفى القصة ، وفى البحوث الأدبية والفنية ..

ثم نشـر ديوانـه الأول « أغـانـى .. وقـصـائد أخـرى » ، عـام ١٨٢٢ ، وكـان وقتها فى العشرين من عمره ، وكان يحمل ارهاصات ومذاقًا من عنصر جديد ، لم تتبلور معالمه بعد ..

وفى العام التالى ، ١٨٢٣ ، تزوج من رفيقة صباه التى كان يحبها كثيراً ، وهى « أديل فوشيه » .

والتى كـانت على جـانب عظيم من الحُسن والدلال .. عـيناها سـوداوان ، وتضـرب بشرتهـا إلى السـمـرة ، وشـعـرهـا فـاحم جـميل ، تتـدلى ذؤابتـاه على كتفيها ..

ويدأ هوجو يعيش ملحمة زوجية ؛ ولكن للأسف كان الفصل الأول منها كئيبًا ومذهلاً ! ..

فبينما كانت حفلة الزفاف قائمة ، والتهانى تنهال على العروسين ، وقع (أوچين) - شقيق هوجو - مغشيًا عليه ، وقد صرعته نوبة عصبية ذهبت بكامل عقله ، ودخل على إثرها مستشفى الأمراض العقلية ! .. والسبب أنه كان يحب « أديل » ، حبًا ضاريًا ؛ لكنه لم يبح بذلك ، وأخفاه عن كل الناس ، احترامًا لشعور شقيقه ..

وانكب هوجو على الكتابة والتأليف .. وراح يتخلص شيئًا فشيئًا من الكلاسيكية التقليدية التى كانت معروفة فى الأوساط الارستقراطية ..

وأصدر صحيفة (ألهة الشعر الفرنسى) ، والتى كانت تعكس أصداء حركته واتجاهه الرومانسى وتعبر عن آراء القائمين بها ، وكانوا مجموعة من الشباب المتحمسين من الشعراء والكتاب ، ومن بينهم ألفريد دى فينى ، وإسكندر ديماس ، والفريد دى موسيه ..

وفى عام ١٨٢٧ ، خرج أول عطاء مسرحى لهوجو ، وهو مسرحية « كرومويل » ، وهى تاريخية تعالج حياة العملاق الإنجليزى الثائر أوليفر كرومويل ..

وبهذه المسرحية ، ومنذ ذلك العام ، أصبح بحق زعيم الحركة الرومانسية فى الأدب ..

وفى عام ١٩٣٠ ، مُثلت له مسرحية « هرنانى » قدرت عليه ١٥ ألف فرنك وقتها ! ..

وفى السنة التالية ، ظهرت روايته « نوتردام دى بارى » ، وقد راجت رواجًا كبيرًا مع مسرحيتيه : « لوكريس بورجيا » و« روى بلاس » .. وثبتت جميعًا شهرته الأدبية ..

وفى عام ١٨٤١ ، انتُخب هوجو عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، وهو فى أوج مجده ، وحدث بعد ذلك بسنتين اثنتين أن فشلت إحدى مسرحياته فشلاً ذريعًا ، وغرقت إحدى بناته فى نهر السين ، فتخلى مؤقتًا عن الشعر ، وانصرف كلية إلى السياسة .. وأصبح من الأشراف عام ١٨٤٥ ، وكان جريئًا فى السياسة ، لا يركن إلى العاطفة ..

وفى عام ١٨٥١ نُفى بعد إلغاء الجمهورية ، ولم يعد إلى فرنسا إلا عام ١٨٧٠ .. وفى خلال هذه الفترة الطويلة التى قضاها فى المنفى ، راح يواصل الكتابة ، فأبدع وهو فى جزيرة « جرنيزى » البريطانية ، فى بحر المانش ، رائعته الخالدة « البؤساء » ..

هذا ولهوجو روائع أدبية أخرى ، فقد أنتج « أحدب نوتردام » و« ماريون دى لورم » و« الملك يلهو » و« مارى تيودور » و« انجيلو » و« أزميرالد » و« الغطاريف » وكلها مسرحيات .. وله أيضاً عدة دواوين من الشعر هى « أوراق الخريف » و« أغانى العشق » و« الهاتف الداخلى » و« الأشعة والظلال » ..

وقبل نفيه ، كان قد أصبح الشاعر الرسمى للدولة ..

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن أطول جملة هى الجملة الفرنسية الواردة فى رواية « البؤساء » ، والتى تتألف من ٨٢٣ كلمة ، وقد استعمل فيها ٨٣ فاصلة ، ونقطة واحدة فى نهايتها .. وأن أقصر رسالتين معروفتين ، هما اللتان تبادلهما هوجو وناشره « هيرشت بلاكيت » ، فقد أرسل هوجو إليه قصاصة ورق رسم عليها علامة استفهام (؟) .. ففهم منها الناشر أنه يستفسر عن روايته « البؤساء » ، فرد عليه بقصاصة ورق مماثلة ، رسم عليها علامة تعجب (!) ، دلالة على شدة إعجابه بها ..

وكان هوجو يحب زوجته « أديل فوشيه » وأنجب منها أولاداً ، كان أكبرهم « شـارل » ..

ولكنه أحب فتاة أخرى تدعى « چولييت » ، كانت فى السابعة والعشرين من عـمـرها فى ذلك الوقت ، وكـانت ممثلة ناشـئـة ، تؤدى دوراً صـغـيـراً فى مسرحية هوجو « لوكريس بورجيا » ..

وحينما نُفى هوجو إلى جزر بحر المانش طيلة حكم نابليون الثالث ، تبعته زوجـتـه وأيضاً خليلتـه « چولـيـيت » ، وأقـام كل منـهـمـا فى بيت يواجـه بيت الأخـرى ! ..

ولكن سنواته الأخـيـرة فى المنفى اتسـمـت بالحـزن والأسى ، إذ هـجـرته زوجته ، التى ما لبثت أن توفيت ، كما هربت ابنته مع ضابط بريطانى ..

وقـد عـاش هوجـو ثلاثة وثمـانين عـامـاً ، وأوصى قـبل وفـاتـه بجـمـيـع مـخطوطاته ، ومـا كتبـه ، إلى المكتبة الوطنية فى باريس ، كما أوصى أن يدفن بمقابر الفقراء ، ولكن رفاته قد حُمل إلى البانيثون ، حيث يرقد عظماء فرنسا .. وقد بقى نعشه معروضاً تحت قوس النصر طوال ليلة كاملة ..

وكانت حياة فيكتور هوجو حافلة بالطرائف والأخبار التى تروى عن نظرة الناس إليه ، وكذلك الحـوادث التى جرت بينه وبين عظماء عصـره .. ومنهـا أن « بسـمـارك » ، الوزير الحـديدى ، وبطل الوحـدة الألمانيـة ، كـان مشـغـولاً بضم الولايات الألمانيـة بعضـهـا إلى بعض ، ووضـحـت نوايا نابليون الثـالث فى إعداد العُدَّة لغزو ألمانيا ، فمـا كـان من بسمـارك إلا أن بعث إلى هوجـو برسـالة تبدأ بهذه العبـارة : « من عظيم ألمانيا إلى عظيم فرنسا » ويرجو فيها الشاعر الكبير أن يوجه الشـعب الفرنسى ضـد نابليون الثـالث ، وضـد فكرة الحـرب التى كان يكرهها هوجو كرها شديداً ..

فما كان من نابليون الثالث إلا أن اعتقل هوجو ، فهاج الشعب الفرنسى هياجًا شديداً ، وراح يهدد الإمبراطور إن هو لم يُفرج عن هوجو .. وأمام الأمر الواقع ، اضطر نابليون إلى أن يرسل إليه فى السجن رسالة بخط يده جاء فيها أنه عفا عنه .. فغضب هوجو وأعاد الرسالة إلى الإمبراطور ، بعدما كتب على ظهرها أنه يرفض العفو ، وأنه برئ لم يقترف ذنبًا ..

وحدث أن غادر هوجو ذات مرة ، بعد أن انتهى تمثيل إحدى مسرحياته ، واستقل عربته عائداً إلى منزله ، فأحاط الجمهور بالعربة ، وسرّحوا الجياد التى كانت تجرها ، وتولوا هم دفعها بسواعدهم حتى منزل الشاعر ، وهم ينشدون ويهتفون !! ..

وفى أحد الأيام ، كان نابليون الثالث ، يسير فى مركبته الإمبراطورية بأحد شوارع باريس الكبرى ، فتكاثر القوم حوله يريدون أن يشاهدوه .. فسُر نابليون بتلك الشعبية التى يتمتع بها .. ولكنه ما لبث أن رأى الناس يتفرقون عنه .. ونظر ناحية الناس الذين تركوه فجأة ، فإذا هم يلتفون حول أحد المارة ويهتفون بحياته ! .. فلما سأل عن الخبر ، قالوا له إن المار الذى اجتذب الناس إليه هو الشاعر فيكتور هوجو .. فغضب الإمبراطور ، وأمر أحد رجال الشرطة بالتحقيق مع هوجو بتهمة الإخلال بالأمن ! ..

أما عن أغرب وأطرف الحوادث فى حياة هوجو على الإطلاق ، فهو أن الأمريكيين عندما بلغتهم شهرة هوجو ، طاروا إعجابًا به .. ثم ما لبثوا أن أرسلوا إليه أجمل أربع وعشرين فتاة أمريكية لزيارته فى فرنسا والتقرب إليه ؛ لكى يأتيهم منه نسل عبقرى !! ...





ماركونى

(١٨٧٤-١٩٣٧)

مخترع

الراديو واللاسلكي

ينفرد القرن العشرون ببصمات مميزة .. ترك بعضها مخترعو وسائل النقل : السيارة ، والطائرة ، والقطار ، والسفينة .. إلخ .. وترك بعضها الآخر مخترعو وسائل الاتصال :

التلغراف والراديو ، والتليفون ، والتلفاز .. إلخ ..

ومن هذا المنطلق كان لا مفر من اعتبار ماركونى ركنًا مهمًا من الأركان القليلة التى تقوم عليها حضارة هذا القرن ..

ولد جوجليلمو ماركونى G. Marcomi فى بلدة بولونيا بإيطاليا ، فى ٢٥ إبريل من عام ١٨٧٤ ، لأب إيطالى وأم أيرلندية ، وكانت أسرته غنية .. وقد دخل المدرسة فى بلدته ، ثم فى فلورنسا القريبة ، إلى أن التحق بالمدرسة التكنية فى ليجهورن فى إيطاليا أيضًا .. حيث درس الفيزياء ، وحيث اتيحت له الفرصة للإلمام بالأبحاث التى قام بها قبله العالمان ، جيمس ماكسويل (Maxwell) ، وهاينريش هرتز (Hertz) ، وكانت الموجات الكهرو مغناطيسية - أو موجات الراديو - هى محور تلك الأبحاث .. والمجال الذى استأثر بكل اهتمام ماركونى .. أو بأكثره ، ذلك أنه شغف بالأبحاث والتجارب التى سبق أن قام بها السير أوليفر لودج فى مجال البرق والكهرباء ..

وتشير المراجع إلى أن ماركونى لقى من أمه تشجيعاً لم يلقه من أبيه .. فقد كانت أمه صاحبة فضل فى حثه على مواصلة أبحاثه وتجاريه .. وأيدته حيث تعثرت مساعيه ، وتنكرت لمنجزاته السلطات ..

وكان لماركونى فى سيرة حياة بنيامين فرانكلين ، التى اطلع عليها مبكراً ، خير باعث على القيام بما قام به من تجارب علمية فى المجالات التى ذكرنا .. وقد قام بأولى تلك التجارب وهو فى السادسة عشرة من عمره ..

ومن العجيب حقًا ، بل والغريب ، أن أباه قد تنكر لتجاريه .. وعمل على تثبيط عزيمته ! .. ولكن موقف الأب هذا لم ينل من همة ابنة العلمية .. ابنه المفطور على حب العلم ، والموهوب للاشتغال فيه .. فقد واصل إجراء تجاريه فى عام ١٨٩٥ ، حتى إذا استكملها تقدم باختراعه إلى وزارة البريد والتلغراف الإيطالية عام ١٨٩٦ ..

وأتت الرياح بما لم تشتهيه السفن .. فقد رفضت السلطات الإيطالية اختراعه ذاك ، بحجة أنها لم تجد فيه ما يستحق الاهتمام والرعاية ..

فالتلغراف الكهربائى السلكى كان قائماً وناجحاً فى نظر المسئولين الطليان .. ولم يكن ثمة ما يبرر التفكير فى استبداله بالتلغراف اللاسلكى الذى تقدم به ماركونى على نحو بدائى ..

فبينما حمل التلغراف السلكى آنذاك آلاف الرسائل عبر المحيطات وبين مختلف الدول وشتى القارات ، لم يستطع تلغراف ماركونى اللاسلكى أن يجتاز برسائله أو إشاراته أكثر من ١,٥ ميل ..

وما أسرع ما هجر العالم الإيطالى بلده ، وتوجه إلى لندن .. هو وأمه .. ولم يكد يمضى على وصوله العاصمة البريطانية بضعة شهور ، حتى سجل فيها الاختراع الذى تنكرت له بلده .. ثم أقام فى تلك السنة نفسها (١٨٩٦) عرضاً لاختراعه أمام سلطات البريد والتلغراف البريطانية ..

وما لبث ماركونى أن حسَّن اختراعه ، فوسّع مداه حتى بلغ ٩ أميال ، ثم ١٢ ميلاً (عام ١٨٩٧ ، و٣١ ميلاً فى عام ١٨٩٩) ..

وتجدر الإشارة إلى أن كبير مهندسى دائرة البريد فى لندن ، السير وليام بريس preece قد شمل ماركونى برعاية خاصة ، وذلك تقديراً له ولاختراعه ، وكان لهذه الرعاية أثرها فى نجاح ماركونى السريع فى السنوات القليلة التالية .

وجهز ماركونى عام ١٨٩٩ سفينتين أمريكيتين بتلغرافه اللاسلكى .. وذلك من أجل نقل أخبار سباق القوارب .. على أن اهتمامه انصب على الجانب التلغرافى من أداء جهازه .. لا الجانب الإذاعى .. وآثر التقدم فى بث الرسائل التلغرافية للأغراض التجارية والحكومية والإنسانية وغيرها على العمل من أجل تطوير أداء جهازه لبث البرامج الإذاعية ..

وجاء عام ١٩٠١ لتشهد القفزة الكبيرة الحاسمة التى قفزها اختراع ماركونى ، فقد نجح فى إرسال إشاراته اللاسلكية عبر المحيط الأطلسى من أوربا إلى أمريكا ، وبالعكس .. وبذلك أصبح فى العالم أسلوبان للاتصال التلغرافى .. الأسلوب السلكى الذى يعود ظهوره وانتشاره إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وأسلوب ماركونى اللاسلكى الذى كان ظهوره يُعد المؤشر لحلول القرن العشرين ..

على أن النجاح العلمى الذى حققه ماركونى كان بحاجة إلى حافز يحوله إلى نجاح تجارى .. فقد بقى التلغراف اللاسلكى محصوراً بجدران المختبرات الجامعية .. حتى كانت الكارثة الكبرى .. أن غرقت السفينة « تيتانيك » عام ١٩١٢ ..

فقد غرقت السفينة التى لا تغرق ، وغرق معها نحو ١٥٠٠ من ركابها ، كان بينهم كثيرون من الوجهاء والأغنياء .. ولو كان جهاز ماركونى اللاسلكى

موضع الاهتمام والاستعمال الجدى لكان فى الإمكان إنقاذ ضحايا التيتانيك جميعًا .. لذلك كان قرار تعميم استعمال التلغراف اللاسلكى على السفن فى طليعة القرارات التى اتخذها مؤتمر لندن آنذاك .. وأعقب ذلك انتشاراً التلغراف اللاسلكى فى مشارق الأرض وفى مغاربها ..

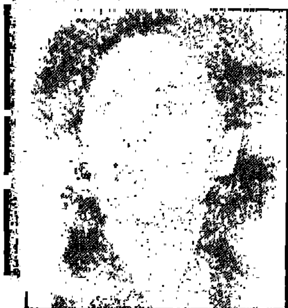
ومن طريف ما يذكر أن جائزة نوبل التى مُنحت إلى ماركونى عام ١٩٠٩ ، إنما مُنحت له ولرجل آخر اسمه « كارل فرديناند براون » .. فقد اعتبر هذا الرجل شريكًا لماركونى فى اختراعه ، بالرغم من أن الناس جميعًا اعتبروا القسمة مجحفة بحق ماركونى ، حتى براون نفسه لم يتردد فى الاعتذار لماركونى يوم توزيع جوائز نوبل .. والإعراب له عن أسفه لحصوله على نصف مكاسبه دون حق أو مبرر ..

ولاندرى كم بلغت المكافأة المادية التى صحبت جائزة نوبل آنذاك .. إذ لم يكن الأمر يعنى ماركونى من قريب أو من بعيد ، فقد أصبح مليونيراً قبل حصوله على الجائزة .. وقد قدرت تركته بعد موته - عام ١٩٣٧ بروما - بحوالى ٢٥ مليون دولار .. وهبها كلها تقريباً لابنته من زوجته الثانية .. أما زوجته هذه وأبناؤه الثلاثة من زوجته الأولى . وكذلك هذه الزوجة التى عاشت مع ماركونى ٢٢ عامًا .. فلم يحصلوا على أكثر من الحد الأدنى الذى نصت عليه القوانين الإيطالية ..

بقى أن نعلم أن ماركونى فقد إحدى عينيه فى حادث سيارة عام ١٩١٠ ، وحضر مؤتمر السلام العالمى فى فرسايل ، ووقع هذه المعاهدة ووثائقها ، بصفته مندوبًا عن إيطاليا عام ١٩١٩ .

كما زار مصر كذلك فى افتتاح الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ .





عائشة عبد الرحمن

(١٩١٢)

بنت الشاطئ

على مدى أكثر من أربعة عشر قرنًا ، وُضعت آلاف الكتب حول سيرة النبى ، صلى الله عليه وسلم .. وعن كل شىء فى حياته .. إلا أن أحدًا لم يصنف كتابًا قائمًا بذاته عن .. « آمنة بنت وهب » ، أم النبى ، صلى الله عليه وسلم .. حتى كان عام ١٩٦٦ ، حيث أصدرت مؤسسة دارالهلال كتاب « أم النبى » والذى يتناول تاريخها بالتفصيل .. فكان بذلك أول كتاب يقدم للمكتبة العربية عن هذا الموضوع .. وفى ٣ إبريل عام ١٩٩٤ ، نالت صاحبة هذا الكتاب جائزة الملك فيصل للآداب والدراسات الإسلامية .

لتصبح بذلك أول عربية ومصرية تفوز بهذه الجائزة ..

وقد رشُحت لنيلها من قبل فى عامى ٨٣ ، ١٩٨٤ ، ولم تنلها لأنها كانت عضوًا مُحكِّمًا فى اختيار الجائزة للآخرين ..

فمن تكون تلك الأديبة والصحفية والأستاذة الجامعية والكاتبة الإسلامية التى يحظى اسمها اليوم باحترام جامعات العالم ، واحترام وإعجاب ملايين من قراء العالم الإسلامى بكتابتها الرائعة والأصيلة ، والتى بلغت أكثر من أربعين كتابًا ، وآلاف المقالات ، على مدى أكثر من نصف قرن ! ..

إنها الدكتورة « بنت الشاطئ » ..

ولدت عائشة محمد على عبد الرحمن الحسينى ، فى دمياط عام ١٩١٢ ، وكان أبوها الشيخ « محمد على » مدرسًا بالمعهد الدينى هناك ، بعدما انتقل إليه من مدرسة دمياط الابتدائية الأميرية للبنين ، وقبل ذلك من الأزهر الشريف ، الذى نال شهادته منه ..

وقد أنجب ابنته وسماها « عائشة » تيمنًا باسم زوج النبى ، صلى الله عليه وسلم .. وأنجب لها خمس شقيقات أخريات ، وشقيقتين أيضًا ..

وكان جدها لأمها ، الشيخ « إبراهيم الدمهوجى الكبير » ، أحد شيوخ الأزهر ..

حفظت القرآن الكريم فى أحد كتاتيب القرية ، وتعلمت فيه مبادئ القراءة والكتابة .. وكان لوالدها دور كبير فى تعليمها منذ صغرها ، إذ كان يصحبها معه إلى مكتبة فى المسجد ليعلمها فى أوقات فراغه ، المبادئ الأولية لعلوم العربية والإسلام ، ويجعلها تحضر معه مجلسه الدينى مع شيخ المعهد ومدرسيه .. وكان لتلك النشأة الدينية أثر كبير عليها فى تلك السن الناشئة ..

وعندما بلغت السابعة من عمرها ، رأت زميلاتها ، من بنات دمياط يدخلن المدرسة .. وأرادت هى الأخرى أن تحذو حذوهن .. فكانت أول صدمة لها فى حياتها ، حين رفض والدها السماح لها بأن تذهب للمدرسة ، فتقاليد الأسرة تأبى خروج بناتها وذهابهن إلى المدرسة .. وإنما يتعلمن فى البيت ..

وبالفعل .. درست عائشة فى البيت .. ليس فى المرحلة الأولى فقط ، ولكنها ظلت تدرس وتنجح بتفوق من منزلها وحتى دخولها الجامعة .. ولم تكن الجامعة آنذاك تعرف نظام الانتساب ، ولم تكن العائلة تقبل أن تدخل ابنتهم إليها ! .. فتحايلت الفتاة الراغبة فى العلم ، وأصبحت تتسلل إلى الجامعة دون علم والدها ..

وقبل دخولها الجامعة كانت تعمل سكرتيرة لكلية البنات بالجيزة .. وقبل ذلك كانت تعمل مدرسة للبنات فى إحدى مدارس المنصورة ..

وعندما كانت فى عامها الجامعى الثانى ، بكلية الآداب بالجامعة ، كانت المكتبات تعرض كتابها الأول ، وهو بعنوان « الريف المصرى » .. ليس هذا فقط ، وإنما قد فازت أيضاً بالجائزة الأولى فى المباراة الرسمية التى أعلنت عنها الحكومة فى موضوع .. « إصلاح الريف والنهوض بالفلاح » ، وكانت قداختيرت عضواً فى «المؤتمر الزراعى الأول» الذى انعقد بالقاهرة عام ١٩٣٦، مع مجموعة من أقطاب الزراعيين والتعاونيين ..

وفوق ذلك كله ، كانت صحفية ، تكتب مقالاتها وقصصها فى عدة صحف ومجلات ، مثل مجلة « النهضة النسائية » ، و« الهلال » ، وصحف « البلاغ » و« كوكب الشرق » ، و« الأهرام » .. التى نشرت لها فى صفحاتها الأولى مقالاتها عن الريف المصرى وقضية الفلاح ..

وفى هذا الوقت ، قفز إلى ذهنها ما أثار خوفها ، فصحيح أن المجلات الشهرية محدودة التوزيع ، واحتمال وصولها إلى يد والدها يعتبر ضعيفاً ؛ ولكنها بعد أن نشرت لها الصحف اليومية والمجلات الكبرى بعض إنتاجها ، أصبحت تخشى أن يعلم والدها بالأمر ، فيغضب ويثور أو يصدر قراراً يحرم فيه عليها الاتصال بالصحف والكتابة فيها ، استناداً إلى أن تقاليد الجيل والبيئة لم تكن تسمح بذلك !

وبعد تفكير عميق ، استقر رأيها على اختيار اسم مستعار لها ، توقع به مقالاتها ، وحرصت على أن يكون هذا الاسم المستعار منتمياً إلى الشاطئ ، شاطئ دمياط ، حيث كان مرح طفولتها بما فيه من ذكريات جميلة ومرة ..

وهكذا اختارت لها اسم « بنت الشاطئ » ، الذى عُرفت به منذ عام ١٩٣٣ ، وحتى اليوم ..

وحصلت على ليسانس الآداب فى عام ١٩٣٩ .. وعُينت معيدة فى الجامعة ..

ثم حصلت على الماجستير عام ١٩٤١ - أى بعد عامين من تخرجها - وكانت رسالتها عن « الحياة الإنسانية لأبى العلاء » ..

وفى عام ١٩٤٤ ، حصلت على شهادة الدكتوراة ، وكان موضوعها « دراسة نقدية لرسالة الغفران » ..

وفى ذات العام ، تزوجت من الأستاذ الكبير « أمين الخولى » ، أستاذها بالكلية ، والذى كان يدرس لها ولزملائها علوم البلاغة والتفسير ..

وكان الأستاذ أمين الخولى ، صاحب الزى الأزهرى ، يجيد الألمانية والإيطالية كأهلها .. ولم يكن لبنت الشاطئ زوجًا فقط ؛ بل كان أستاذها ومعلمها الأول ، وربما الأخير .. فقد كان دائم النصح والتوجيه لها ، وقد وصلها بالمكتبة الألمانية الخصبة فى الفكر والفلسفة ، وكان يحذرها من أن تحصر نفسها فى الثقافة الفرنسية وحدها أو الإنجليزية ، أو أية ثقافة كانت ..

وكان يصحبها كل عام إلى أوربا .. شهر للراحة .. وشهر لزيارة المتاحف والجامعات والمكتبات .. وظل معها وظلت معه حتى فجعت برحيلة عن الدنيا فى مارس من عام ١٩٦٦ ، بعد قصة عجيبة بين تلميذة وأستاذها .

وقد شغلت الدكتورة بنت الشاطئ مناصب علمية عديدة هى :

أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس ..
عضو اللجنة الدائمة للغة العربية بالمجلس الأعلى للجامعات ..

عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة .. أستاذ منتدب لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية .. أستاذ منتدب لمركز تحقيق التراث بدار الكتب ..

كما أنها شغلت منصب أستاذ زائر لجامعات أم درمان الإسلامية ، والخرطوم ، والقاهرة فرع الخرطوم ، والقرويين بفاس والجزائر .

وهى حالياً تشغل منصب أستاذ التفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب ..

كما مثلت مصر والجامعة فى :

مؤتمر المستشرقين بميونيخ عام ١٩٥٧ ، ونيودلهى عام ١٩٦٤ .. والمؤتمر الأول للكتاب الأسيوى والأفريقى بطشقند عام ١٩٥٧ .. ومؤتمر أدباء العرب فى القاهرة والكويت وبغداد .. ومؤتمر النساء الأفريقيات فى غانا وكرا عام ١٩٦٠ .. والحلقة الدراسية للنحو العربى عام ١٩٦٠ .. والحلقة الدراسية لمشكلات الأسرة والهجرة عام ١٩٦٢ .. والحلقة الدولية للأدب العربى المعاصر فى روما عام ١٩٦١ ،. ومؤتمر المعلمين العرب بالجزائر عام ١٩٦٣ .. وندوة علماء الإسلام فى المغرب عام ١٩٦٨ .. وندوة أسبوع القرآن بأم درمان عام ١٩٦٨ .. ومهرجان الشاعر إقبال فى الباكستان عام ١٩٦٩ .. والمركز التأسيسى للجامعات الإسلامية فى مارس عام ١٩٦٩ .. كذلك اشتركت فى المواسم الثقافية التى أقيمت فى سورية والعراق والكويت والأردن وفلسطين والجزائر والسودان والمغرب وأبو ظبى والباكستان ..

أما ما قدمته من مؤلفات ودراسات للمكتبة العربية والإسلامية ، فهو شيء رائع وعظيم كذلك وهي ليست في كتاباتها أستاذة جامعية ، وباحثة إسلامية فقط ، بل وأديبة أيضاً ..

ومن مؤلفاتها ، التي ربت على الأربعين ، كما ذكرنا قبلاً :

« الريف المصرى » .. « قضية الفلاح » .. « أم النبى » .. « نساء النبى » .. « بنات النبى » .. « السيدة زينب » .. « سكينة بنت الحسين » .. « الخنساء » .. « رابعة العدوية » .. « مقال فى الإنسان .. دراسة قرآنية » .. « التفسير البيانى للقرآن الكريم » .. « الإعجاز البنيانى للقرآن » .. « مع المصطفى فى عصر المبعث » .. « مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث » .. « من أسرار العربية فى البيان القرآنى » .. « معجم المحكم لابن سيده » .. « رسالة الغفران » .. « رسالة ابن القارح » ... « جديد الغفران » .. الحياة الإنسانية عند أبى العلاء » .. « تراثنا بين ماضٍ وحاضر » .. « لغتنا والحياة » .. « أبو العلاء المعرى » .. « أعداء البشر » (تقصد الصهانية) .. « على الجسر » .. « أرض المعجزات » .. « سيد الغرية » .. « رجعة فرعون » .. « صور من حياتهن » .. « سر الشاطئ » .. « امرأة خاطئة » .

هذا غير عشرات من الأبحاث القيمة الأخرى لها . .

وقد ترجمت كتبها : « أم النبى » و« نساء النبى » و« بنات النبى » و« السيدة زينب » و« سكينة بيت الحسين » ، إلى اللغات الفارسية والأوربية والهندوسية ..

وهى عندما كتبت تراجم سيدات بيت النبوة الطاهر قالت :

« لم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث ، حتى قرأت ما فى مكتبتنا من مؤلفات تناولت هذا الجانب من حياة الرسول وحياة زوجاته ، مبتدئة بالقرآن الكريم ، وكتب السيرة ، والتفسير ، والحديث ، ثم التراجم والتاريخ ، وضممت إليها ما استطعت الوصول إليه مما كتبه المستشرقون عن محمد والإسلام ، فى الإنجليزية والألمانية والفرنسية ، وإنه لكثير » ..

وهى عندما تكتب لا تستطيع أن تخفى تأثرها بجملة عوامل :

طفولتها بكل ما فيها من مرح وألم على شواطئ دمياط .. أمها المكافحة التى صمدت معها وأعانتها ضد معارضة والدها المستمرة .. جدها الذى ساعدها كثيراً .. الريف والفلاحين الذين أحبتهم وأحبوها فى قريتها ، عقيدتها الإسلامية وثقافتها ؛ بل ثقافاتها .. وأخيراً الحبيب والزوج والأستاذ العملاق النادر ، أمين الخولى ، الذى نجح فى أن يجعل لكل ذرة من رصيدها القديم من الثقافة والعلم قيمة كبرى ، ثم نجح فى مزجها بالجديد فأصبح ما فى عقلها وقلبها ثروة تقدم أحسن ما فيها للقراء كلما صدر لها كتاب جديد ..

وبعد وفاته .. كتبت إهداء كتابها « مقال فى الإنسان .. دراسة قرآنية » ، إلى هذا الزوج العظيم .. فقالت :

(إلى « أمين الخولى » الإنسان .

صحبته فى رحلة الحياة فتجلت لى فيه وبه ، آية الإنسان بكل عظمته وشموخه وكبريائه ، وجبروت عقله ومرهف حسه وعزة ضميره ..

ثم مضى ..

فعرفت منه وفيه مأساة الإنسان . بكل هوانه وضعف حيلته وقصور طاقاته .. وفيما بين حياته وموته ، أرهف إحساسى بقصة الإنسان ..

من المبتدأ إلى المنتهى) ..

وقد أنجبت الدكتورة بنت الشاطئ ثلاثة أبناء .. ربتهم على أساس من العلم والدين .. وكانت تقسّم ساعات الليل والنهار بين العمل والبيت ..

وعن الأسرة تقول : « أخشى ما أخشاه على الأسرة المصرية أن تتحول لأسرة تليفزيونية ، فينقطع الوصال العائلى ! » ..

وعن المرأة العربية قالت : **« إن تاريخ المرأة العربية لم يُكتب بعد ، فضلاً عن أدبها الذى خلفته فى مختلف العصور .. وأعتقد أن أداء هذا الواجب الجليل يعد أمانة غالية منوطة بذوات الأقلام منا .. فالأنثى أفهم للأنثى ، وأقدر على تمثلها وفهم أفكارها وآثارها » ..**

إن الدكتورة بنت الشاطئ .. أو عائشة محمد على عبد الرحمن الحسينى ، هذه الباحثة التى قهرت تقاليد الأسرة والزمن وتعلمت ذاتيًا ، وتسللت إلى الجامعة المصرية ، ونالت أعلى الشهادات ، وتبوأت أرفع المناصب ، وكانت سفيرة إسلامية لمصر فى كل الجامعات العربية.. هى فخر ، ونموذج يُحتذى ، وقدوة تتبع ، لكل فتاة ، وامرأة ، مصرية وعربية وإسلامية .





أرســـطو

(٣٨٤ـ ٣٢٢ ق.م)

أعظم الفلاسفة

أطلق عليه فلاسفة العرب لقب « المعلم الأول » ..

وهو أعظم فيلسوف وعالم فى العصر القديم .. وتمثل أعماله استقصاءً موسوعيًا وتصنيفًا شاملاً لمعارف عصره .. وكان صاحب مدرسة تعرف باسم « اللوقيون » أو « المشائين » .. وهو أيضًا معلم الإسكندر الأكبر .. وعنى بتلقين تلامذته عناصر المعرفة ومنهجها فى العلوم والآداب والفنون والفلسفة .. وهو مؤسس علم المنطق .. ويرجع إليه الفضل فى أنه أول من أرسى القواعد الفلسفية للعلوم .. وحدد مصطلحات المعارف العلمية التى ظلت سائدة على مدى ثمانية عشر قرنًا تقريبًا .. وفى مذهبه ، كما كان سائدًا قديمًا ، الفلسفة والعلم مبحث معرفى واحد ..

والكثير من نظرياته قد بطلت الآن ؛ ولكن أخطر ما تركه لنا هو البحث العقلى فى كل شىء .. فهو الذى جعل كل شىء وكل فكرة خاضعة للعقل الإنسانى .. وهو أيضًا الذى أكد أن الكون كله لا يخضع للصدفة أو للسحر ، وإنما لقوانين منطقية عقلية ثابتة لا تتغير حسب رغبات الأفراد ..

وهذا الأسلوب فى التفكير هو الذى كان أساسًا للحضارة الغربية ضد كل الأساليب التقليدية الصوفية السحرية الخرافية فى كل العصور .

إنـه الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو Aristotle ، الذي ولد عام ٣٨٤ ق.م في « استاجيرا » ، وهي مدينة مقدونية تقع على بُعد نحو مائتي ميل شمالي أثينا ..

وكان والده صديقًا وطبيبًا للملك « مينتاس » ملك مقدونيا في ذلك الوقت ، وجد الإسكندر المقدوني .. ويبدو أن أرسطو أصبح عضوًا في إحدى الجمعيات الطبية ، وشب في شذا الطب ، وتوفرت أمامه كل فرصة وتشجيع للنمو بعقلية علمية ، وأُعد منذ البداية ليكون مؤسس العلم .. وفي سن الثامنة عشرة ذهب إلى أثينا ليتتلمذ على الفيلسوف الكبير « أفلاطون » في أكاديميته ..

وقد درس هناك سنوات عديدة ، يُقال إنها استغرقت العشرين ، وكانت من سني أرسطو السعيدة ، تلميذ لامح الذكاء تحت إرشاد أستاذ لا يُضاهَى ..

ويبدو أن أرسطو قد تعلم الملاحظة والبحث من والده ، وتعلم التأمل والتفكير الفلسفي من أستاذه أفلاطون ..

وقد أعجب الأستاذ بتلميذه .. ووصفه بأنه « الذكاء المجسم في الأكاديمية » .. وقد أنفق أرسطو بإسراف في شراء الكتب وجمعها ، حتى كوَّن مكتبة كبيرة ووضع الأساس لتصنيف وتبويب الكتب – وهذا من جملة ما ساهم به للعلم – مما دفع أفلاطون إلى تسمية بيت أرسطو « بيت القارىء » ..

ويبدو أن أفلاطون أراد أن يقدم لأرسطو أخلص تحياته القلبية ؛ ولكن يبدو أن خلافًا حقيقيًا وقع بينهما في أواخر أيام أفلاطون ، مما دفع التلميذ – أرسطو – أن يشير إلى أن الحكمة لن تموت بموت أستاذه ، أما الأستاذ – أفلاطون – فقد شبَّه تلميذه بمُهر يرفس أمه الفرس ! ..

وافتتح أرسطو مدرسة لتدريس الخطابة ، لمنافسة الخطيب اليوناني الشهير « إيسوقراط » .. وكان من بين تلاميذه في هذه المدرسة من يُدعى

« هيرمياس » ، ذلك الذى أصبح بعد مدة وجيزة حاكماً لمدينة « أتارنيس » إحدى المدن اليونانية ، ودعا أرسطو إلى بلاطه ، وفى عام ٣٤٤ ق.م كافأ أستاذه على فضله عليه بتزويجه اخته (ويقال ابنة أخته) ..

ويُذكر أن أرسطو – على الرغم من عبقريته – قد عاش بسعادة مع زوجته ، وكان يذكرها بالحب والخير .. وبعد عام واحد دعاه الملك « فيليب » ملك مقدونيا إلى بلاطه ، وعهد إليه تثقيف ابنه الصغير « الإسكندر » ، والذى أصبح فيما بعد الإسكندر الأكبر ، أعظم عقلية عسكرية فى التاريخ كله .. وقد دلت هذه الدعوة على ذيوع شهرة فيلسوفنا ، واتجاه أعظم ملك فى ذلك الوقت إلى أعظم معلم ؛ لكى يكون معلماً لابنه الذى سيغدو سيد العالم فى المستقبل ..

وقد قام فيليب المقدونى هذا بتوحيد بلاد اليونان كلها بالقوة ، ثم وضع الخطط التى تمكنه هو وابنه من سيادة العالم وتوحيده ؛ ولكنه وقع صريع اغتيال أودى بحياته ..

لقد كان الإسكندر عند قدوم أرسطو شاباً متوحشاً فى الثالثة عشرة من عمره ، وكان عاطفياً كذلك ، ويصرف وقته فى ترويض الخيل الوحشية ، ولم تحرز جهود الفيلسوف فى تبريد نيران هذا البركان الثائر فائدة كبيرة ..

لقد أحب الإسكندر لفترة من الوقت أرسطو العزيز محبة لا تقل عن محبته لأبيه ، وقال : إنه على الرغم من أن والده أنجبه إلى هذه الدنيا ، فقد علّمه أرسطو فن الحياة فيها ..

وترك الإسكندر أرسطو والفلسفة بعد سنتين فقط ليرتقى العرش ويفتح العالم .. وهذه المدة القليلة كانت كفيلة بتعليمه أشياء كثيرة ..

ويقال : إن الإسكندر عرض على أستاذه أن يرافقه ؛ ولكن أرسطو فضّل العودة إلى أثينا ، وأرسل مع الإسكندر ابن أخته « كاليثينيس » ، وكان فيلسوفًا ومؤرخًا أيضًا ..

وفى أثينا ، افتتح مدرسة (اللوقيون) .. واجتمع حوله الكثير من التلاميذ مما استدعى ضرورة وضع ترتيبات معقدة لحفظ النظام .. حيث قام التلاميذ أنفسهم بتقرير النظام ، فانتخبوا كل عشرة أيام واحداً من بينهم ليشرف على المدرسة .. وبالرغم من ذلك ، لم يكن نظام المدرسة هذا صارماً ، فقد كان الطلبة يتناولون طعامهم بالاشتراك مع أستاذهم - أرسطو - ويتعلمون منه عندما كانوا يذرعون معه الميدان الرياضى - الذى استمدت المدرسة اسمها منه - جيئة وذهابًا .. ولذلك سميت المدرسة أيضًا باسم « مدرسة المشائين » ..

ولم تكن المدرسة صورة طبق الأصل من المدرسة التى تركها أفلاطون وراءه ، حيث اختصت أكاديمية أفلاطون فوق كل شىء بالرياضيات والفلسفة السياسية التأملية .. أما مدرسة أرسطو فقد مالت أكثر إلى تدريس علم الأحياء والعلوم الطبيعية ..

وقد ذكروا أن الإسكندر أمر رجال صيده وبساتنته وصيادى أسماكه بأن يمدوا أرسطو بكل المواد الحيوانية والنباتية التى يرغب فيها .. ويذكر آخرون أنه كان تحت تصرفه فى وقت واحد ألف رجل انتشروا فى أنحاء آسيا واليونان يجمعون له النماذج والعينات الحيوانية والنباتية من كل أرض ..

ولكن كيف جمع أرسطو الأموال لتمويل كل هذه الجهود الكبيرة ؟ .. إنه الإسكندر ، تلميذه الأثير ، فقد أمده بأموال كثيرة تساعده على إتمام أبحاثه وتجاربه .. ويذكر البعض أن الإسكندر - عندما كان بمصر - طلب من أرسطو

إرسال بعثة باهظة التكاليف لاكتشاف منابع النيل ، وكشف أسباب فيضانه كل عام ..

ويشير كل ذلك إلى وجود عدد كبير من المساعدين والموظفين مع هذا الفيلسوف العظيم ..

ومع ذلك فإننا نظلم أرسطو لو تجاهلنا المعدات المحدودة التى رافقت هذه المصادر والتسهيلات التى حصل عليها .. فقد كان مرغمًا على تعيين الوقت بغير ساعة ومقارنة درجات الحرارة بغير ميزان للحرارة ، ومراقبة السماء بغير مرصد ، والطقس بغير بارومتر .. فقد كان من بين جميع المعدات والآلات الرياضية والعصرية التى فى حوزتنا المسطرة والبوصلة فقط ، مع بعض الآلات الأخرى الناقصة ، إذ أن التحليل الكيماوى والمقاييس الصحيحة والأوزان ، وتطبيق الرياضيات على العلوم الطبيعية لم يكن معروفًا بعد ، كما أن قانون الجاذبية والظواهر الكهربائية ، وشروط التركيب الكيماوى ، وضغط الهواء وتأثيره ، وطبيعة الضوء ، والحرارة والاحتراق ، وغيرها كانت جميعها أو معظمها لم يتم اكتشافها بعد ..

وقد كتب أرسطو وألف عددًا كبيرًا من الكتب ، قال بعضهم إنها قد بلغت المئات ، وقال البعض الآخر : إن عددها مائة وسبعون كتابًا .. وقد فُقد معظمها ، ولم يحتفظ التاريخ منها إلا بسبعة وأربعين فقط .. ومع ذلك فهى مكتبة فى حد ذاتها ..

أولاً – تحتوى على كتابات منطقية مثل : « المقولات » و« الموضوعات » و « المقدمة » و« التحليلات التالية » و« الموضوع والمحمول » و« الدحض السفسطائى » ..

وثانيًا – الأعمال العلمية مثل : « الطبيعيات » و« في السماء » و« التطور والانحلال » و« علم الظواهر الجوية » و« التاريخ الطبيعي » و« عن النفس » و« أجزاء الحيوان » ..

وثالثًا – أعمال في فن الذوق والبلاغة مثل « البلاغة » و« علم العَروض » و« الخطابة » و« الشعر » ..

ورابعًا – تأتي الأعمال الفلسفية مثل : « الأخلاق » و« السياسة » و« الميتافيزيقا » و« العلم الإلهى » ..

وهنا نلحظ أن أرسطو كتب عن علم الفلك وعلم الحياة وعلم الأجنة والجغرافيا والجيولوچيا والفيزياء والتشريح ووظائف الأعضاء وكل مجال من مجالات العلوم في ذلك الوقت ..

وكتب أيضًا فى علم النفس والأخلاق وعلم الجمال واللاهوت والاقتصاد والسياسة والخطابة والمسرح والشعر .. ثم أنه هو الذى أسس علم المنطق ..

وأبحاثه العلمية تضم ما جمعه كثير من مساعديه فى ذلك الوقت ؛ ولكن النتائج هى من استخلاصه وصياغته هو .. وقد وقع أرسطو فى أخطاء كثيرة وكانت له آراء يشوبها الكثير من السذاجة والسخافة ؛ ولكن ذلك لا ينقص من قدر الحقائق الرائعة التى اهتدى إليها فى كثير من الأشياء ..

لقد غزت فلسفة أرسطو وتعاليمه العالم غزوًا أفضل من غزو الإسكندر له ..

وطبيعى أن لا نجد فى عقل أرسطو العلمى الأسلوب الشعرى الجميل الذى يتسم به أسلوب أفلاطون ، فأفلاطون هو أشعر الفلاسفة ، أما أرسطو فهو يقدم لنا علمًا فنيًا مجردًا مركزًا ..

وقد ترجم العرب فى عصر ازدهار نهضتهم بعض كتب أرسطو ، وشرحوها ، وعلقوا عليها ، واستوعبوا فلسفته وفكره العلمى ، وعالجوا قضاياهم فى ضوء منهجه .. ويعتبر الفيلسوف العربى « ابن رشد » هو أكثر من تأثر بأرسطو وفلسفته .

وبالإضافة إلى العربية ، ترجمت أيضاً أعمال أرسطو إلى كل اللغات ، وتركت أعمق الأثر ..

وهو القائل : « **إن النقد هو أبو الثورات .. وإن الحضارة تبدأ بتعليم الشباب** » .

وفى الأيام الأخيرة للإسكندر الأكبر ، وقع خلاف حاد بينه وبين أستاذه الأول أرسطو ، فقد أقدم الإسكندر على قتل « كاليثينيس » ابن أخت أرسطو ، وذلك لأنه عارض الإسكندر - المغرور - فى فرض ألوهيته على الشعب .. وبعدما قتله أشار إلى أنه لن يتورع عن إعدام الفلاسفة أيضاً ، وأن هذا ضمن نطاق قدرته ! ..

وعندما علم أرسطو بذلك قال : « يا للحسرة .. إنه لم يتعلم كيف يغزو جشعه الشخصى ! » .. وقال فى موضع آخر ، تعريضاً بديكتاتورية الإسكندر ، : « **إن الديكتاتورية هى أردأ أنواع الحكومات قاطبة** » ..

وقد علم الإسكندر بتصريحات أستاذه تلك ..غير أنه توفى فجأة .. وفرح الأثينيون بموته ؛ لأنهم كانوا يكرهون الحكم الديكتاتورى ، ويتوقون للحرية والديمقراطية ، وكان « ديموستين » ، خطيب أثينا المشهور ، يلهب بفصاحته وخطبه نفوس الأثينيين ، ويهاجم أرسطو الذى كان يؤيد الإسكندر قبل ذلك ، ويهاجم الإسكندر الذى أقام تمثالاً لأرسطو وسط أثينا .. ولذلك فبعد وفاة

الإسكندر قام انقلاب أودى بالحزب المقدونى الحاكم وأعلن الأثينيون استقلالهم ، وتم توجيه تهمة الخيانة العظمى والإلحاد ضد أرسطو ، الذى وجد أن مصيره قد ينتهى بالحكم عليه بالموت ، تماماً كما فعلوا من قبل بجده فى الفلسفة « سقراط » ، الذى حكموا عليه بأن يشرب كأساً من السم .. فقال أرسطو : « لا حاجة لى إلى أن أهيىء لأثينا فرصة ارتكاب خطيئة ثانية ضد الفلسفة » .. وترك أثينا ليذهب إلى « تشالسيس » ، ذلك المنفى الذى اختار الذهاب إليه .. وهناك ، وبعد عدة أشهر ، مرض مرضاً شديداً ، ومات وحيداً عام ٣٢٢ ق.م ، وعمره ٦٢ عاماً ..





حسن البنا

(١٩٠٦-١٩٤٩)

رجل بألف رجل

- إذا أردنا دراسة فلسفة ما ، أو إحدى النظريات ، أو شئنا التعرض لإحدى الحركات أو الجماعات ، فيجب علينا أولاً التعرف على صاحب هذه الفلسفة أو مُنشئ هذه الحركة أو مؤسس تلك الجماعة .. وهذا شيء مهم لأن « كل إناء ينضح بما فيه » ..

فمثلاً .. كارل ماركس - إمام الماركسيين وزعيمهم - كان نموذجاً سيئاً في حياته الشخصية والاجتماعية كذلك .. وكان متكبراً ومزهواً بنفسه .. ويعتقد أنه أفضل عقلية عرفها العالم !.. وقد رأينا ماذا فعلت فلسفته وآراؤه وأفكاره في البشرية حتى الآن .. وقرأنا في بروتوكولات الصهاينة قولهم : « **ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل!** » .. ثم كيف يستقيم فكر رجل لم يعترف بوجود الله تعالى ، وقال : « إن الدين أفيون الشعوب ! » ..

أما حسن البنّا ، مؤسس جماعة « الإخوان المسلمون » ، كبرى الحركات الإسلامية والعالمية في القرن العشرين ، فقد كان نموذجاً يُحتذى حقًّا ، في أقواله وأفعاله .. وحياته كلها .. ولد حسن أحمد عبد الرحمن البنّا ، في المحمودية بمحافظة البحيرة ، في ١٧ أكتوبر عام ١٩٠٦ ، ونشأ في بيت عريق في العلم والدين .

ولا غرو فلقد قام والده بترتيب مسند الإمام أحمد ترتيباً فقهياً . مما ييسر لطلبة العلم أن يستفيدوا من هذا التراث الضخم ، فجاء الكتاب فى ٢٤ مجلداً .. وله كتب أخرى فى الحديث مثل « بدائع المنن فى جمع وترتيب مسند الإمام الشافعى والسنن » ..

وكذلك « منحه المعبود فى ترتيب الطيالسى أبى داود » .. وكان والده يعمل فى تصليح الساعات فسُمى بالساعاتى ، وكان زاهداً فى عيشته ومسكنه ..

وفى هذا الجو نشأ البنا وترعرع ، فتميز بطابع الشغف العلمى والورع والزهد ، وبانت ملامح الذكاء عليه منذ الصغر ، وكان يداوم على الليل ، وصيام الاثنين والخميس ، وحفظ نصف القرآن الكريم صغيراً ، ثم أتمه عندما ناهز الاحتلام ، وكنت تلمح من قسمات وجهه الحزن والألم الذى يعتلج فى صدره على المسلمين وحالهم ، وكانت غيرته أحياناً تدفعه لتغيير بعض المنكرات بيده ..

ولقد شفت روحه ، وصفت نفسه من خلال تقربه بالنوافل ، وممارسته العمل الإسلامى على مستواه كطالب ، فألف جمعية فى المدرسة أسماها « محاربة المنكرات » .. وكان يتولى إرسال الرسائل إلى بعض الشخصيات ينصحها مُغْفِلاً الاسم .

وتخرج من الثانوية ، وكان ترتيبه الخامس بين جميع طلبة مصر .. ثم دخل كلية دار العلوم ، ودرس بها وتقدم لامتحانها النهائى بحفظ ١٨ ألف بيت شعر ومثلها من النثر !!..

وتخرج من دار العلوم بتفوق لا نظير له ، إذا كان الأول على دفعته .. وقامت بينه وبين وزير المعارف مشكلة حول لباس الجبة والعمامة ، فأصر الوزير على خلعها وأصر البنا على لبسها ، ونجح البنا فى موقفه الصلب ..

وعُين البنّا مدرسًا فى إحدى مدارس الإسماعلية ، حيث كانت القوات البريطانية تجثم هناك ، ولا يبدو على الاسماعيلية سوى الطراز الأوربى ، فكأنها حى من أحياء لندن ، ومعظم أهلها عمال فى شركة قناة السويس البريطانية ..

كان البنّا يرى الإنجليز وقد أذلوا الشعب المصرى ، ويشاهد العمال كأنهم عبيد عند ذوى الوجوه الحمر ، ويرى الإباحية والفساد والتحلل يستشرى فى العالم الإسلامى وبخاصة مصر ، وذلك بعد إسقاط الخلافة على يد الذئب الأغبر (مصطفى كمال أتاتورك) عام ١٩٢٤ ، ويرى الغربيين جادين فى اجتثاث الإسلام من جذوره وإقصائه من الوجود والشهود .. يرى هذا كله فتتمزق أحشاؤه كمدًا ، ويذوب قلبه أسى ، ويتحدث البنّا عن هذه الفترة فيقول : « يعلم الله كم من الليالى كنا نقضيها نستعرض حال الأمة ، وما وصلت إليه فى مختلف مظاهر حياتها ، ونحل العلل والأدواء ، ونفكر فى العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء » ..

واتصل البنّا ببعض من توسم فيهم الخير ، تعاهد هو وخمسة منهم على تكوين نواة العمل الإسلامى ، وحتى لايخرجوا باسم جديد فقد سموا أنفسهم باسم المسلمين ، فقالوا : نحن (إخوان مسلمون) ..

وبدأ البنّا دعوته فى الإسماعيلية ، فبارك الله فى عمله ، وأثمر على يديه ، وقد ربى من هذه الطبقة المسحوقة نماذج رائعة ، فكان منهم الرعيل الأول فى هذه الدعوه وحسبك من هؤلاء الشيخ « محمد فرغلى » الذى وقف وقفة رائعة أمام قائد القوات البريطانية ، والذى يُصر على إخراجه من الاسماعيلية ، وفرغلى يصر على البقاء قائلاً : « إن شخصًا واحدًا يستطيع إخراجى من الاسماعيلية وهو البنّا ! » ..

ولم تعن حكومة فاروق بالأمر بادئ ذى بدء ، ولم تُعره إهتماماً ، وكانوا يرددون : ماذا يمكن أن يفعل مُعلم الأولاد ؟ .

ونُقل البنّا إلى القاهرة بعد إزدياد نشاطه ، وتحويله الاسماعيلية إلى خلية نحل عاملة للإسلام .. وأنشأ فى القاهرة دار الإخوان ، ونذر جهده ونشاطه وحياته على التعريف بالدعوة الإسلامية ، فجاب القرى ، وطاف المدن ، يفتتح شُعبة حيثما حل ، فأصبحت الدعوة خلال سنوات ملء سمع مصر وبصرها ، وانضمت العينات من أبناء مصر للدعوة ، وانضوى تحت جناحها كثير من اللافتات الإسلامية ، وأصبحت الحكومة تتوجس خيفة من انتشار الدعوة ، ففتحت بصرها ، وأطلقت أجهزة رصدها وعيونها لترقب حركة الدعوة ، فكان يتابع البنّا بضعة عشر من رجال المخابرات يسيرون حيث سار ..

ويدأ البنّا يتصل بالجيش ، وينظم الضباط ، ويحض الإخوان على التدريب والتسليح ، وأقبلت سنة ١٩٤٧ فدفع البنّا ببعض كتائبه ، إلى فلسطين التى شاهدت رُباها وجبالها نماذج فريدة ، ماشهدتها من قبل ، أناساً يحبون الموت على الحياة ، ولقنوا اليهود دروساً قاسية ، وذاقوا منهم الويلات .. وفكر فاروق مع الإنجليز فى الأمر الذى استفحل ، وخاصة بعد أن اكتشف أمر الأسلحة الفاسدة التى يحملها فاروق للجيش المصرى فى فلسطين ، والذى خشى من عودة الإخوان ، فخطط لضرب الحركة الإسلامية ، وخاصة بعد أن تجمعت بعض المبررات لذلك منها قتل رئيسين للوزراء فى عهده هما : أحمد ماهر والنقراشى ، فاتهم الإخوان بقتلهما ..

وأعتقل الإخوان ، وأودعوا السجون ، وأُبقى البنا خارج السجن لإغتياله ، كان هذا فى أواخر عام ١٩٤٨ ، وقد طبع الإخوان فى مطابعهم تقويماً للعام الجديد المقبل ، وعليه صورة البنّا .. ووصل التقويم فاروق فثارت ثائرته ، وجُنّ جنونه ، وتحرك سُعَار العظمة الذى يسرى فى أوصال الطواغيت ، واستدعى

حافظ عفيفى ويوسف رشاد ، وكان الأول رئيساً للديوان ، والآخر مستشاره وطبيبه الخاص .. فقال لأحدهما : « هل رأيت صورة الملك الجديد » .. وأشار إلى صورة البنّا المثبته على التقويم .. وقال « إن حسن البنّا يريد قلب عرشى ولابد من قتله » ..

وتم إرسال خمسة من رجال المخابرات ليغتالوا البنّا فأطلقوا الرصاص عليه فى أكبر ميادين القاهرة ، أمام دار الشبان المسلمين فى ١٢ فبراير عام ١٩٤٩ ، فجُرح ونُقل إلى المستشفى لإسعافه ، وألقيت الأوامر المشددة للأطباء بأن يتركوا البنّا ينزف حتى الموت ، وأرسل فاروق البكباشى محمد وصفى ليجهز عليه ويشهده وهو يلفظ أنفاسه ..

وجاء فى مذكرة النيابة العامة المصرية عام ١٩٥٢ : « وقع حادث الاغتيال الساعة الثامنة من مساء السبت ١٢ شباط (فبراير) عام ١٩٤٩ ، ولفظ الشهيد العزيز آخر أنفاسه فى الساعة الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل ، وقد دخل محمد وصفى غرفة العمليات ، فسأل الطبيب عن حالة البنّا فقال : « إن إصابته ليست خطرة ، فأخرج كل من الغرفة ! » ..

وقد جاء على لسان الأمين الخاص للقصر الملكى : أن الملك أرسل محمد وصفى للإجهاز على حسن البنّا إن كان لا يزال حيًا ..

وتمت مراسم الجنازة والدفن فى تكتم شديد وحراسة مشددة .. فقد صَلَّت أربع نساء فقط على جنازة الشهيد مع والده الذى أثقلته السنون ، وتم قطع الكهرباء عن الحى ، وحملت النساء الأربع النعش فى جو رهيب بين صفوف الدبابات ، ودُفن البنّا ، وحُرِس القبر حتى لا يُخرج الإخوان جثته ويتظاهروا ..

واستراح فاروق من البنّا الذى فارق الدنيا ، وليس عند أولاده قوت يكفيهم لشهر ، ولا يملكون أجرة البيت ..

وواصل الإخوان جهادهم ، واختاروا مرشداً جديداً هو الأستاذ حسن الهضيبى ، وقامت ثورة ١٩٥٢ على يد مجموعة من الضباط بعد التشاور مع الإخوان الذين أنزلوا يوم الانقلاب عشرة آلاف مسلح فى القاهرة وحدها لحماية الثورة .. وقد ذكر فاروق فى مذكراته : « إن الإخوان المسلمين هم الذين قلبوا عرشى ، ولقد أرادوا ضربى فى عرض البحر لولا أنى أمرت رُبَّان السفينة فغيَّر اتجاهها » ..

لقد كان الإمام الشهيد حسن البنَّا رجلاً بألف رجل ، أسس جماعة « الإخوان المسلمون » التى كانت أول جماعة قامت فى العالم الإسلامى بعد سقوط الخلافة ، فهمت الإسلام حق الفهم ، وادركت خطورة الأوضاع التى تمر بها الأمة ، فواجهت التيارات المنحرفة وتصدت لها .. وعن طبيعة هذه الجماعة ومنهجها يقول الإمام :

« لسنا حزباً سياسياً ، وإن كانت السياسة على قواعد الإسلام من صميم فكرتنا .. ولسنا جمعية خيرية إصلاحية ، وإن كان عمل الخير والإصلاح من أعظم مقاصدنا .. ولسنا فرقة رياضية ، وإن كانت الرياضة البدنية والروحية من أهم وسائلنا .. لسنا شيئاً من هذه التشكيلات ، فإنها جميعها تخلقها غاية موضعية محدودة لمدة محدودة ، وقد لا يوحى بتأليفها إلاَّ مجرد الرغبة فى تأليف هيئة ، والتحلى بالألقاب الإدارية فيها .. ولكننا أيها الناس فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج لا يحدده موضع ، ولا يقيده جنس ، ولا يقف دونه حاجز جغرافى ، ولا ينتهى بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ذلك لأنه نظام رب العالمين ، ومنهاج رسوله الأمين » .





رمبرانت

(١٦٠٦-١٦٦٩)

فنان الضوء والظلال

إنه الفنان الهولندى ، والمصوّر العالمى ، الذى طبقت شهرته الآفاق ، وغاص من خلال لوحاته فى أعماق النفس البشرية ، وصوّرها تصويراً جيداً ، والذى لم يختلف طريق حياته عن طريق العديد من أمثاله من العباقرة ، فقد كان طريقًا قاسيًا شائكًا محفوفًا بالمصاعب والأرزاء ؛ ولكنه كان غنيًا بالعطاء والإبداع ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان مبدؤه فى هذه الحياة « اعطِ أكثر مما تأخذ » ..

ولد رمبرانت هارمنز فان راين ، فى بلده « ليدن » الهولندية ، عام ١٦٠٦ ، فى أسرة متوسطة الحال ، وكان أبوه طحانًا ، وبرغم ضيق ذات يده ، إلا أنه لم يبخل فى بذل كل ما فى وسعه من أجل تعليم ابنه الرابع .. ومن أجل ذلك دخل رمبرانت جامعة ليدن عام ١٦٢٠ ، حيث انتسب إلى كلية الآداب ..

غير أن موهبة رمبرانت الفنية ما لبثت أن ظهرت واجتاحت كل ما سواها فى حياته ، بحيث انصرف الفتى عن طلب العلم ، إلى طلب الفن ، والتحق بأحد أساتذة الرسم المعروفين فى ليدن فى ذلك الزمن ، واسمه « سواننبرج » ، الذى لم يكد يطلع على رسوم تلميذه المبتدىء حتى أدرك بنظرته الثاقبة أن « هذا الطائر الصغير سيُحلق عاليًا جدًا » فراح يكشف له شتى جوانب أسرار

المهنة .. ويُذكر عن هذا الأستاذ أنه كان من المتخصصين فى فن الرسم المعمارى ، وأنه قضى فترة من الزمن فى إيطاليا ، التى كانت رائدة الفن فى أوربا فى تلك الأيام ..

وقد دام تدرُّب رمبرانت على يد أستاذه الأول ثلاث سنوات ، ثم نصحه بالسفر إلى العاصمة ، أمستردام ، التى كانت هى الأخرى ملتقى الأدباء والفنانين ، وينبوعًا لا ينضب من الإبداع والتجديد ..

وهناك تتلمذ على يد أحد مشاهير أساتذة الفن فى هولندا حينذاك « بيترلاستمان » ، فنان اللوحات التاريخية ، والمعروف بحبه للفن الإيطالى ..

وفى مرسم هذا الأستاذ ، قضى رمبرانت أربع سنوات ، كان لها بالغ الأثر فى تكوين شخصيته الإنسانية والفنية ، حيث عاد بعدها إلى مسقط رأسه بجعبة غنية من المعارف والخبرات ، وبعبقرية متفتحة تزخر بالعطاء والإبداع .. ولكنه لم يلبث أن أدرك أن مدينته الصغيرة أضيق من أن تستوعب عبقريته المحلقة ومواهبه الفذة ، فيقرر العودة مرة أخرى إلى العاصمة .. ويبدأ رمبرانت بمباشرة العيش والعمل فى أمستردام ، وشهدت هذه المرحلة من حياته النجاح والشهرة البالغين اللذين تحققا له ، ولمّا لم يمضِ على وجوده فى العاصمة الهولندية سوى سنة أو أقل ، إذ ما لبث أن أصبح فى طليعة فنانى الرسم الهولندية ، وزعيمهم الذى لا يُبارى فيما يتصل برسم وجه الإنسان ، وتوافد عليه الرسامون الناشئون وغير الناشئين من شتى الجهات ، وراحوا يتلمسون السر الذى رفع رمبرانت إلى تلك المرتبة الرفيعة ..

ومن أعظم اللوحات التى أبدعها رمبرانت فى تلك الفترة ، والتى لفتت إليه الأنظار كمصوِّر بارع ، هى لوحة « درس فى التشريح للدكتور تولب » ، والتى جاءت صورة حية وصادقة للعالم الروحى الداخلى للإنسان ، والتى كشفت عن أن رمبرانت ، بالاختلاف عن أقرانه ، لا يهتم بالعظمة البرّاقة ولا بالمشاهد ذات

اللمعان السطحى ؛ بل ينصرف بكل جوارحه للكشف عن الجوهر الحقيقى لمواضيع لوحاته ..

وفى هذه اللوحة - وجميع لوحاته الأخرى - تتجلى بأروع مظاهرها ما أصبح يُعرف فيما بعد باسم إضاءة رمبرانت ، القائمة على معارضة الضوء بالظل .. فجميع لوحاته خالية من مصادر الضوء المرئية : الأبواب والنوافذ والمصابيح والشموع وغيرها .. إن لوحاته نفسها هى مصدر الضوء ، وعلى إيقاع هذا الضوء تنبض الحياة فيها ، الحياة الحقة المعاشة يوميًا ، حياة الصراع الأبدى بين النور والظلام ، بين الخير والشر ، بين الأفراح والأتراح لا الحياة الراكدة الهادئة الميتة ..

وقد شهدت هذه المرحلة أيضًا زواجه السعيد من « ساسكيا فان أولينبورش » عام ١٦٣٤ ..

وهذه السعادة مردها أولاً إلى المال الوفير الذى جاءت به العروس إلى بيت الزوجية ، وتُعزى ثانيًا ، وبقدر أكبر إلى حب الزوجة العميق لزوجها ، وتقديرها الكبير لفنه ، واستعدادها للتضحية فى سبيل راحته ..

وقد تركت هذه الزوجة الصالحة ، التى كانت سنده فى أحلك ساعات حياته ، أثرًا كبيرًا فى حياة رمبرانت ، بدليل ما تعرضت له حياته من هزات عنيفة عقب وفاتها عام ١٦٤٢ ..

وقد رحلت وتركت له ابنه « تيتوس » ، الذى لم يكن قد بلغ الشهر السادس من عُمره وقتها ! ، فانصرف بكليته إلى الفن وتربية ابنة الصغير فى أحضان الطبيعة الخلاّبة ، حيث دعاه أحد أصدقائه الشعراء للإقامة لديه فى إحدى القرى .

وهناك كرّس رمبرانت إبداعه فى الكشف عن جمال الوطن وروعته .. بقراه الواقعة على ضفاف الأنهار ، وطواحينه الهوائية ، ومراعيه المليئة بالقطعان ..

ولكن رمبرانت لم يولد للحياة الهادئة الوادعة ؛ بل كان بطبيعته مجبولاً على الخوض فى لجة الحياة العاصفة ، فيعود إلى أمستردام ، وتبدأ مرحلة جديدة فى حياته وفنه ، حيث انصرف إلى تصوير حياة البائسين والكادحين ، التى أصبحت تطغى حتى على لوحاته ذات المواضيع الدينية .. والغريب أنه كلما ازداد تحليق رمبرانت وإبداعه فى عطائه ، ازداد انصراف مجتمعه عنه ، واتسع طوق العزلة من حوله ، ولم تلبث أن حلّت الطامة الكبرى ، حينما تراكمت الديون عليه .. لدرجة أن المحكمة حرمته من الوصاية على ابنه ، وأشهر إفلاسه ، وبيعت أملاكه فى المزاد عامى ١٦٥٧ و ١٦٥٨ و منها منزله وما فيه من كنز فنى ثمين ، جمعه طوال حياته ، عشرات اللوحات لأبرز الفنانين ، أمثال روفائيل وجورجونه وتستيان ، بالإضافة إلى العديد من التماثيل النصفية وغيرها ..

وفى أواخر أيامه ، يبزغ نجم جديد ساطع فى حياة رمبرانت المظلمة – خادمته « هندريكا ستوفلز » ، ذات القلب الطيب والروح الساحرة ، التى شاطرته الفاقة والحرمان فى أحد الأحياء البائسة ..

وقد خلّد رمبرانت هندريكا الوفيّة فى عدد من لوحاته ، تماماً كما خلد زوجته من قبل ، مع فارق واحد هو أن ساسكيا كانت ترفل فى الملابس الثمينة ، وتزدان بالحُلى والجواهر ، أما هندريكا فلا ترتدى إلا الملابس العادية ، ولا تزدان إلا بابتسامتها وإنسانيتها ..

وتموت هندريكا عام ١٦٦٢ ، فيحزن عليها رمبرانت حزناً شديداً .. وفى عام ١٦٦٨ يتوفى ابنه تيتوس ، ولا يبق لفناننا من أحد فى هذا العالم ليعيش من أجله ، فيتوفى هو الآخر فى نهاية عام ١٦٦٩ ، ويُدفن فى أمستردام .

وبرغم مرور أكثر من ثلاثمائة عام على وفـاة هـذا الفنـان الكبيـر ، إلا أن لوحـاته لا تزال تمور بالحيـاة ، وتشع بالأمل والثقـة ، وتنبض بالإنسـانيـة الزاخرة ..

وقد احتل فن البورتريه مرتبة الصدارة فى أعمال رمبرانت الخالدة ، ففى هذا الفن بالذات تجلت عبقريته وموهبته فى التحليل النفسى ، والكشف بلمسات رمبرانتية خفية من ريشته ، عن خفايا النفس البشرية ، والطبيعة الإنسانية المعقدة ، ومصير الإنسان وجماله الروحى ..

ويُلاحظ أن رمبرانت كان ميالاً بشكل خاص إلى تصوير الشيوخ ، فعلى وجوههم يمكن أن تقرأ صفحات العمر كله ، وغالبًا ما تكون هذه الصفحات غاية فى البؤس والمعاناة والحرمان ..

وللوحات رمبرانت خصائص وميزات معينة نذكر منهما ميزتين .. الأولى ، ميله إلى الألوان القاتمة ، وقد غلبت هذه الألوان على أعماق لوحاته ، حتى بدت وكأن الظلمة تلفُّها وتحيط بها .. ولم يَحُل ذلك طبعًا دون ظهور بعض الضوء هنا وهناك فى اللوحة ..

أما الميزة الثانية ، وهى الأهـم ، فقد تجلت فى حرص رمبرانت وقدرته الفائقة على الكشف عن خفايا النفس البشرية وطواياها الدفينة ، وكأنه أحد كبار كتاب القصة العالمية ! ..

ومن المعروف أن المتحف البريطانى بلندن يمتلك أكبر مجموعة متفردة من رسـوم رمبـرانت ، تضم أكثـر من ثمـانين لوحـة تغطى المراحل المخـتلفـة من انجازاته كفنان .

ومن أشـهر أعمـاله ، لوحـات « العجـوز ذو الرداء الأحـمر » و« المحـارب العجـوز » و« فلورا » و« الابن البار » و« عودة الابن الضـال » و« الفيلسـوف

فى حالة تأمل » و« حارس الليل » و« صورة العائلة » و« وجه أمى » و« لوكريس بورجيا » و« الفنان مع قبعته » و« الفتاة النائمة » ..

وفى عام ١٩٠٦ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الثلاثمائة لمولد رمبرانت ، تم شراء منزله القديم من قبل مدينة أمستردام ، وكُلِّف أحد المهندسين المعماريين المشهورين بإعادة تشييد المنزل وتجديده من الداخل ، وتقريبه ما أمكن من أصله الأول .. واستمر العمل فيه من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ ، حيث تم افتتاح بيت رمبرانت كمتحف للزوار .. ومنذ ذلك الحين يتوافد الآلاف من مختلف دول العالم لزيارة بيت هذا الفنان العظيم ، والنظر بإعجاب لمجموعة اللوحات التى تركها والتى تزين جدران منزله .

★★★



كوبر نيكوس

(١٤٧٣-١٥٤٣)

الفلكى العظيم

« الشمس تدور حول الأرض » ..

كان هذا هو ملخص « النظرية البطليموسية » فى النظام الشمسى .. تلك التى وضعها عالم الفلك والجغرافى الشهير « كلوديوس بطليموس » ، المولود بالأسكندرية حوالى عام ٧٥ م .. وذلك فى كتابه « المجسطى » الذى قال فيه : إن الأرض هى محور المجموعة الشمسية ، وإن الشمس والكواكب تدور حولها فى أفلاك دائرية ! ..

ورغم ما وقع فيه بطليموس من خطأ جسيم فى هذه الناحية ، إلاّ أن رأيه ظل سائداً حتى العصور الوسطى .. وقد أعاقت نظريته تقدم علم الفلك لأكثر من ١٤٠٠ عام .. ولكن لماذا .. نعم لماذا سادت آراؤه تلك ؟ .. لأن نظامه هو الأفضل للملاحة البحرية وضبط الوقت بالقياس إلى المحاولات السابقة التى قال أصحابها إن الكواكب تدور حول الشمس ..

ومن أصحاب هذه المحاولات السابقة ، عالم الفلك اليونانى « أرسطارخوس » (٣١٠ - ٢٣٠ ق.م) ، وهو من أوائل من قالوا : إن الأرض تدور حول نفسها ، وتدور فى فلك لها حول الشمس .. إلا أن رجال الدين هاجموه لأفكاره تلك ! .. وتوارت نظريته لقرون طويلة .. حتى أتى كوبر نيكوس

أخيراً فى القرن الخامس عشر الميلادى فأيد نظريته ، وأثبت أن الأرض والكواكب هى التى تدور حول الشمس ، وليس العكس ..

ولد نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus عام ١٤٧٣م ، فى بلدة « تورن » Tourn ، على نهر الفستولا ، فى بولندا .. من أسرة غنية ذات أصل ألمانى .. وكان والده يعمل فى التجارة .. وفى الثامنة عشرة من عمره ، التحق بجامعة « كراكوف » .. وهناك تأثر بأحد أساتذة الرياضيات ، والذى كان من المتحمسين للنظام البطليموسى ، وقد أثارت دروسه فى الرياضيات اهتمام كوبرنيكوس ، فأقبل على دراستها هى وعلم الفلك ..

وفى عام ١٤٩٧ ، عاد إلى بلده ، حيث كان خاله قد عُين أسقفًا بها ، وقام بإعداده لكى يتولى منصباً كَنَسيًا فى بلدة « فراونبرج » Fraunberg ؛ ولذلك أرسله للدراسة فى إيطاليا ..

ودرس كوبرنيكوس هناك اللغة الإغريقية ، وتتلمذ على يد الفلكى الإيطالى الشهير « دومنيكو نوفارا » Domenico Novara ..

وبدأ يقوم برصد النجوم وتتبع حركتها فى السماء .. ولما عاد إلى بولندا ، تولى منصبه الكَنَسى فى فراونبرج .. ولكنه غادرها فى أجازة دراسية إلى إيطاليا مرة أخرى ، حيث قام بدراسة القانون والطب فى جامعة « بادوا » Padua ..

وفى شهر مايو عام ١٥٠٣ ، حصل على شهادة الدكتوراة فى القانون الكنسى ، وعاد إلى بولندا حيث عمل مستشاراً لخاله الأسقف .. ثم عمل فى منصبه ممثل للكاتدرائية فى فراونبرج بعد وفاة خاله .. ومارس نشاطه فى الطب واشتهر كطبيب وراع للكنيسة .. إلى جانب أن صيته فى الفلك بدأ يعم أوربا كلها .

وكان أثناء إقامته فى إيطاليا قد درس أعمال العالم والفيلسوف الإغريقى « أرسطارخوس » الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد .. ووجد عند هذا الفيلسوف أن الأرض والكواكب كلها تدور حول الشمس .. واقتنع بهذا الرأى ..

ولما بلغ الأربعين من عمره كان قد ألفّ بحثًا ، وأخذ هذا البحث وراح يعرضه على أصدقائه وزملائه ، وملخصه يقول : إن الشمس هى مركز هذه المجموعة التى من بينها كوكب الأرض .. ولم يكتف بذلك ؛ بل راح يجمع ملاحظاته والأدلة التى تؤكد صحة نظريته حول هذا الموضوع ..

وكان كوبرنيكوس يقوم بتسجيل مشاهداته الفلكية ، وسجل ٢٧ من هذه المشاهدات التى استمدت من عام ١٤٧٩ حتى عام ١٥٢٩ .. وفى خلال هذه الفترة ، ونتيجة لمشاهداته الفلكية ، كان إيمانه يزداد بخطأ النظام البطليموسى ، وصحة ما جاء به أرسطارخوس ، فراح يسجل المادة التى سوف تكون أساسًا لمؤلفه التاريخى الجليل : « دورة الأجرام السماوية » ..

وفى هذا الكتاب عرض نظريته بالتفصيل ، ثم الأدلة على صحة ما يقول ..

وفى عام ١٥٣٣ ، وعندما بلغ الستين من عمره ، ألقى سلسلة من المحاضرات فى روما على بعض من تلاميذه ، عرض فيها مبادئ نظريته دون أن يثير غضب رجال الدين .. وحتى عندما أكمل كتابه هذا ، فإنه تردد فى نشره خوفًا من الكنيسة ومن معارضيه المتحمسين للنظام البطليموسى .. ولم يقرر نشر كتابه العظيم ، إلا عندما أصبح فى أواخر الستينات من عمره .. ولم ير النسخة الأولى منه إلا يوم وفاته ! ..

وقد تضمن ستة أجزاء .. الجزء الأول تناول كروية الأرض وحركتها .. وناقش الجزء الثانى عمليات الكسوف .. وتناول الجزء الثالث الشمس وحركتها

الظاهرة .. وخُصص الجزء الرابع للقمر .. بينما تناول الجزءان الخامس والسادس بقية الكواكب ..

وفى هذا الكتاب أثبت كوبرنيكوس أن الأرض تدور حول نفسها ، وأن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض والكواكب الأخرى كلها تدور حول الشمس .. وقد أدانت الكنيسة كوبر نيكوس على آرائه تلك ، الخارجة عن تعاليم الدين المسيحى ومبادئه ! ، وجاءت هذه الإدانة بعد موته ، وعصر جاليليو .. عالم الفلك الشهير .. الذى آمن بنظرية كوبرنيكوس وأيدها .. فما كان من رجال الدين إلا أن حكموا على جاليليو بالهرطقة والخروج عن الدين ، وأدانوا كوبرنيكوس وكل من ذهب مذهبه ..

وتعتبر نظرية كوبرنيكوس هذه أساس علم الفلك الحديث ، وتعد فى تاريخ العلم ثورة بمقاييس عديدة .. كما أثبتت فساد نظرة أرسطو عن تضاد حركات الأجرام السماوية فى فلكها مع حركات الأجسام الأرضية وطبقات السماء .. ومهدت السبيل إلى الرؤية الجديدة للنشأة الطبيعة للمجموعة الشمسية وتطورها ..

وكوبرنيكوس مثل الفلكيين الذين سبقوه ، لم ينجح فى تقدير اتساع المجموعة الشمسية ، والكون أيضاً .. فقد تصور أنه نهائى محدود وأنه كروى الشكل .. وأن حركة جميع الأجرام السماوية دورانية .. أى أنه قد شاب نظريته الكثير من الأخطاء ..

ورغم ذلك فإن كتابه قد أثار إهتماماً بالغًا ؛ بل إنه قد أيقظ فلكيين آخرين ، وحفزهم إلى تكملة هذه الثورة الفلكية ، وخصوصاً الفلكى الدانمركى « تايكو براهى » (١٥٤٦ - ١٦٠١) ، الذى استطاع أن يسجل ملاحظاته الأكثر دقة عن دورة الكواكب حول الشمس ..

ومـن هـذه الملاحظـات استـطاع الفـلكى الألمـانى « يوهـانس كيبلر » (١٥٧١ - ١٦٣٠) ، أن يستنتج الدورات الدقيقة للكواكب ، وأن يثبت أن مدار أى كوكب ليس دائريًا وإنما هو قطع ناقص أى إهليلجى « أى بيضاوى » ..

وعلى الرغم من أن الفيلسوف الإغريقى أرسطارخوس هو الذى سبق أن جعل الشمس مركزًا لدوران الكواكب قبل كوبرنيكوس بقرون عديدة ، فإن الفضل كله قد أرجعناه لكوبرنيكوس ؛ لأن كل ما أعلنه أرسطارخوس كان مجرد تخمين ، ولم يضع النظرية التى تجعل هذا التخمين وهذا الفرض مقبولاً من الناحية العلمية . أما كوبرنيكوس فهو الذى حوّل هذا الفرض إلى نظرية علمية مفيدة ، وكانت ثورة على تصورنا للكون ، كما أنها أدت إلى تغيرات هائلة فى نظرتنا الفلسفية إلى كل شىء .. وكانت أيضًا خطوة لا غنى عنها لثورة جاليليو وكيبلر ، واكتشافاتهما الباهرة .. تلك الاكتشافات التى مكنت نيوتن من صياغة قوانين الحركة والجاذبية بعد ذلك ..

وتوفى كوبرنيكوس فى ٢٤ مايو عام ١٥٤٣ .





مصطفى كامل

(١٨٧٤ ـ ١٩٠٨)

شعلة من الوطنية

– إنه باعث الحركة الوطنية وموقظ الوعى القومى فى مصر ..

ولد فى حى الصليبة ، قسم الخليفة بالقاهرة ، فى ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤ .. وكان والده الضابط المهندس « محمد على » يعمل فى إقامة الكبارى وبناء الثكنات العسكرية فى عهد محمد على باشا ، وكان شديد الحرص على تثقيف أولاده وتنشئتهم تنشئة صالحة ..

ولما بلغ الخامسة من عمره ، عُهد به إلى فقيه يعلمه مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظه القرآن فى المنزل ، ولما أتم السادسة ، التحق بمدرسة والدة عباس الأول الابتدائية بالصليبية ، ثم مدرسة السيدة زينب الابتدائية .. كان متفوقًا فى دراسة التاريخ وفى علم الحساب ، وصار أول أقرانه بلا منازع ، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧ ، متفوقًا على زملائه ، ثم التحق فى العام نفسه بالمدرسة الخديوية الثانوية ، وظل يتابع الدراسة فيها من نجاح إلى نجاح ، فى تفوق وامتياز ونشاط صحفى وطنى ، حتى حصل على الشهادة الثانوية عام ١٨٩١ .. وأصر على اختيار مدرسة الحقوق ؛ لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم (كما قال فى خطابه لأخيه الضابط فى السودان) ، فالتحق بها عام ١٨٩١ ، وبعد سنة التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية أيضًا وجمع بين الدراسة فى المدرستين ؛ ليتمكن من اللغة الفرنسية ، ثم حصل على

شهادة الحقـوق من كليـة « تولوز » بفرنسا عام ١٨٩٤ ، وهـو في العشرين من عمـره .

ومنذ أن كان في المدرسة الثانوية ، أنشأ الجمعيات الأدبية والوطنية ، كما كتب في صحيفة « المؤيد » ، وكان يتردد وهو تلميـذ على دار ناظر المعـارف « علي مبارك » يجادله ويناقشه ، ويحضر مجلسه الحافل بالعلماء والكبار وذوي الرأي ، حـتى تكهن له بمسـتقـبل حـافل باهر .. كـمـا اتصل بمجلس شـوري القوانين وهو في مدرسـة الحقوق ، وكتب في جريدة « الأهرام » ، وأنشأ مجلة « المدرسة » وطنية أدبية تهذيبية ..

وكلما خطب بين إخوانه الطلبة حمل على الاحتلال حملة عنيفة عاصفة ، مما جعلهم يكبرون فيه وطنيته المبكرة ومواهبه الخطابية الفذة ، وقد حرص على الاتصال بـ « عبد الله النديم » عام ١٨٩٢ ، ليعلم منه حقيقة الثورة العرابية ، إذ كان خطيبها الأول وأحد زعمائها ..

ولما أتم دراسة الحقوق في تولوز ، نشرت له صحيفتها الفرنسية أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأي العام الأوربي .. ثم عاد إلى مصر في ديسمبر ١٨٩٤ ، وهو مزود بالعديد من الكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم ، وظل يدرسها ويستوعبها ليتمكن من جوانب القضية المصرية التي أعد نفسه ووهبها لها ..

ولم يقتصر على دراسة الكتب فقط ؛ بل حرص على الاتصال بمعارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته ، يحثهم على الدعوة لمقاومة الاحتلال ، كما تعرف على الكثيرين من الشخصيات البارزة من الكُتاب والأدباء ، وأعضاء مجلس شوري القوانين .. وكان يجول في طول البلاد وعرضها يدعو للجهاد ..

وقد بدأ جهاده هذا بالاحتجاج على اللورد كرومر عندما أنشأ المحكمة المخصصة لمحاكمة الأهالي الذين يعتدون على ضباط وجنود القوات الإنجليزية ، وكانت هذه المحكمة إنجليزية أسندوا رئاستها لوزير الحقانية

المصرى للتضليل والإيهام .. ولم يقتصر على مجرد الاحتجاج ؛ بل اتصل بالأجانب الفرنسيين الذين يقاومون سياسة بريطانيا فى الشرق ، وأقام لهم المآدب وخطب فيها منددًا بالسياسة البريطانية الاستعمارية ..

وفى مايو ١٨٩٥ ، سافر إلى فرنسا للدعوة للقضية المصرية ومهاجمة الاحتلال البريطانى ، فكتب فى الصحف وألقى عشرات الخطب فى المحافل العامة ، وطبع النشرات المصورة الموجهة لرئيس وأعضاء مجلس النواب الفرنسى ، وأهاب بفرنسا أن تشد أزر مصر وتساندها فى الدفاع عن قضيتها .. ثم قصد إلى النمسا للغرض ذاته .. وعاد مرة أخرى إلى باريس ونشر رسالته الشهيرة بالفرنسية ، والتى ضمنها عبارته الخالدة (أحرار فى بلادنا .. كرماء لضيوفنا) ، وفى هذه الأثناء تعرف إلى مدام « جولييت آدم » ، التى يُعد تعرفه بها حدثًا مهمًا فى حياته السياسية والقومية ؛ لأنها من أعظم مَن ناصروه فى الخارج فى دعوته لقضية بلاده ، وبقى صالونها ومكانها فى المجتمع الفرنسى سندًا أصيلاً لمصطفى كامل ، وعضدًا قويًا لنجاح دعايته ، وقد صارت له الأم الروحية التى أخذت بيده ونصرته .

ثم اتجه بالدعوة إلى بريطانيا وزعماء الأحزاب فيها ، وخاصة مستر « جلادستون » زعيم حزب الأحرار ، وبعث إليهم برسائل وتلقى الإجابة عنها .. ثم عاد إلى مصر ، وفى الأسكندرية التقى بالشعب فى خطاب سياسى حافل فى ٣ ماس ١٨٩٦ فى المسرح العباسى .

وكان من أثر قيامه بالدعاية ضد الإنجليز فى أوربا ، أن نقموا على شقيقه « على بك كامل » ، الضابط بالجيش المصرى فى السودان ، وأساؤا معاملته حتى أقدم على الاستقالة ؛ ولكنهم رفضوها ، ثم أحالوه إلى الاستيداع ، ثم قدموه لمحاكمة ظالمة نزلت به من رتبة ضابط إلى رتبة نفر ، وحضر موقعتين حربيتين ، وأحدث هذا الظلم دويًا فى جميع الأوساط ، وقابل مصطفى كامل الخديوى الذى عفا عن أخيه ، ولم ينقذ اللورد « كتشنر » هذا العفو ، إلا بعد صدوره بشهرين ..

وقد جعل مصطفى كامل من ذكرى الاحتلال الإنجليزى مناسبة للخطابة الوطنية المثيرة ، وتحرير المقالات فى الصحف الفرنسية والعربية على السواء ، ولم يقتصر على السفر إلى باريس ؛ بل سعى منها إلى برلين ليرفع صوت مصر فى ألمانيا ، ثم سعى من ألمانيا إلى النمسا ثم إلى تركيا التى تطالب إنجلترا رسمياً بالجلاء عن مصر ..

كادت له قوات الاحتلال فأرادت تجنيده ؛ ولكن الصحف نددت بموقف الحكومة والإنجليز ، فتراجعوا عن تدبيرهم السيئ الذى قصدوا به عدم مواصلة الجهاد فى سبيل قضية الوطن ..

وفى عام ١٩٨٧ ، اتجه مرة أخرى بدعايته إلى ألمانيا وكذلك ڤيينا وبودابست وباريس ، ثم عاد ليقدم لوطنه حساباً رائعاً ونظيفاً عن جهاده فى ربوع أوربا ، كما تردد صدى جهاده فى أمريكا .. وفى عام ١٨٩٨ ، بدأت المعالم الصحيحة لفهم معنى الوطنية تنتشر بين الناس ، وتحركت فى نفوسهم فكرتها ، فأقام طلبة المدارس العليا حفلاً وطنياً رائعاً ، خطب فيه مصطفى كامل ، فى حديقة الأزبكية ، مبيناً الواجبات على المدرسين لوطنهم العزيز .. وهكذا كان مصطفى كامل إماماً ومعلماً ومبشراً للوعى الوطنى .. وكان قد احتج على بريطانيا حين أكرهت مصر على قبول اتفاقية السودان فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ، التى تخول الإنجليز حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فى السودان ، ورفع العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى هناك ، وتعيين حاكم عام إنجليزى للسودان .

وفى نفس العام اتجه عزمه إلى نشر التعليم والتوعية بين المواطنين ، فأنشئت مدرسة « مصطفى كامل » ، كما عاد سيرته الأولى وطاف بربوع أوربا داعياً ضد قوات الاحتلال فى محافلها وأنديتها وصحافتها ، وفى هذا العام أنعم عليه سلطان تركيا برتبة « بك » .

وعاد إلى مصر لإلقاد الخطب المثيرة للحماس والموقظة للروح الوطنية .. كما اهتم بنشر التعليم الصناعى ودعا إليه ، لما فيه من خير عميم يعود على البلاد وعلى الصناعة فيها .

وفى يناير ١٩٠٠ ، أصدر العدد الأول من صحيفة الحزب الوطنى « اللواء » ..

وكان يجعل من نهاية العام الدراسى فى مدرسته مناسبة وطنية يلقى فيها الخطب الوطنية الحماسية ويوزع الجوائز على المتفوقين ، وكان يوم الحفل قادة الفكر أمثال : الإمام محمد عبده ، وشيخ الشعراء إسماعيل صبرى ، وغيرهم ..

واستضاف مصطفى كامل فى يناير ١٩٠٤ ، مدام چولييت آدم » ، الفرنسية العظيمة التى آزرته فى أوربا ، وجعلت صالونها وقصرها منتدى يعقد فيه مؤتمراته الصحفية ، ويلقى فيه خطبه وينشر آراء الوطنية المصرية ، تلك التى آمنت بها حق الإيمان .. وقد قابلت خلال زيارتها لمصر الخديوى « عباس الثانى » ، ثم غادرت مصر إلى فرنسا فى ٤ مارس من نفس العام ..

وقد أنعم الخديوى على مصطفى كامل برتبة الباشوية ..

وعندما تم الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا ، على أن تترك الأولى للأخيرة السيطرة على مصر دون أن تعرقل عملها فى البلاد ، اعتبر مصطفى كامل ذلك مؤامرة استعمارية ، دعا ضدها بكل قوته .. ولم يقتصر على جهاده السياسى بالخطابة والاحتجاج وعرض قضية مصر على العالم العربى ؛ بل كافح فى مجال آخر ، مجال الكتابة والتأليف ، فألف كتاباً عن اليابان التى صمدت فى حربها ضد روسيا ، وقاومتها بفضل روحها الوطنية الوثابة .. وأراد بذلك أن يضرب المثل لمصر والمصريين .

وفى عام ١٩٠٥ .. احتج على حضور الخديوى عباس عرض الجيش البريطانى المحتل ، ووقوفه تحت العلم البريطانى .. كما احتج على زيارة اللورد كرومر لإقليم الفيوم ..

وجمع مصطفى كامل خطبه ، والرسائل التى تبادلها مع الساسة العالميين ، وترجمها إلى الفرنسية ، وطبعها فى كتاب وزعه على العالم دفاعًا عن قضية مصر ، وكان من نتائج جهاده أن اتجه المثقفون من الشباب إلى إنشاء نادى المدارس العليا ، الذى أصبح بحق معهداً وطنيًا وأخلاقيًا ، تكوّن فيه جيل من خيرة الشباب ..

وفى ١٣ يونيه ١٩٠٦ ، وقعت حادثة دنشواى ، وهى أسوأ حدث يدل على بطش المستعمر وظلمه وتجبره ، فشكل الإنجليز محكمة لمعاقبة الفلاحين ، حيث تم إعدام أربعة منهم شنقًا ، وحكمت على مؤذن القرية وآخر بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وآخرين كثيرين بالأشغال الشاقة المؤقتة والسجن والجلد .. وأخذ الحكم وتنفيذ العقوبة صورة إرهابية قاسية ، فيها وحشية وتجبر ..

حدث كل هذا وزعيم الوطنية ، مصطفى كامل ، فى أوربا يواصل حربه ضد الاحتلال ، حتى إذ وصلته أنباء الحادثة مفصلة ، نقلها فى مقال رائع وجهه إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين ، نقله فى تصوير إنسانى مس به شغاف القلب ومشاعر الإنسان ، ووقف العالم على أن مجزرة بشرية متجنية أتاها الإنجليز متجبرين متغطرسين ، وراح ضحيتها مصريون غُلبوا على أمرهم وهم فى بلادهم وفى عقر دارهم .. ووصف فى المقال كيف مارس الظلم الظالمون وكيف شنقوا الأبرياء ، وجلدوا الآمنين ، وأودعوا السجون مظلومين أبرياء مفترى عليهم .. ؟!

وكان للمقال دوى عظيم فى ربوع أوربا وفى إنجلترا ، لبلاغتها وعبارتها المؤثرة ورددتها صحف العالم ، واقترحت صحيفة « التريبيون » الإنجليزية ، وجوب منح مصر حكومة مستقلة .. وتزلزل من بعد ذلك مركز اللورد كرومر العتيد فى مصر ، حتى تمت إقالته ..

وفى يوليو ١٩٠٦ ، عبر مصطفى كامل البحر إلى لندن ليرفع صوت مصر فى العاصمة الإنجليزية والتقى بالسياسيين منهم وحملة الأقلام .. واتصلت به

الجاليات الشرقية والإسلامية ، وأقامت له جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفل تكريم ، انتهزه فأفاض فى الحديث عن قضية مصر ومأساة دنشواى .

وترك لندن وسافر إلى « نيس » بفرنسا ، للاستشفاء بعد الجهد المضنى الذى بذله متنقلاً وخطيباً وثائراً .. ولما علم الناس فى مصر بقرب عودة مصطفى كامل ، أجمعوا أمرهم على تكريمه ، فبعث بخطاب من أوربا إلى نائبه « محمد فريد » ، راجياً فيه أن يتحول المال الذى جمع لتكريمه لإنشاء جامعة أهلية .. وكان خطاباً تاريخياً مشهوراً ، دعا فيه إلى وجوب اتحاد الأمة وأحزابها ، ووجوب تمكين الناس جميعاً من الثقافة والتعليم .. وكان للزعيم ما أراد وتحولت المبالغ إلى المساهمة فى تأسيس الجامعة المصرية .. ووصل مصطفى كامل إلى أرض الوطن فى أكتوبر ١٩٠٦ ، فالتقت به الأمة وتوافدت على دار اللواء للتحية والشكر والإعجاب ؛ لأنه نجح فى استغلال حادث دنشواى ، وجعله وسيلة ليشتد به ساعد الحركة الوطنية ، وجعل صحف العالم تهتم بالمسألة المصرية ، وأجبر الإنجليز على تغيير سياسة الاحتلال ، كما نجحت فكرة تأسيس الجامعة المصرية نجاحاً رائعاً ..

أما عام ١٩٠٧ ، فقد حفل بجهود الزعيم مصطفى كامل فى سبيل قضية مصر وبث روح الوطنية فى النفوس ، وعظّم اهتمام العالم بالمسألة المصرية ؛ ولذلك أنشأ صحيفتين ناطقتين بالإنجليزية والفرنسية هما : (ليتندار اجبسيان) و (ذى اجبشيان ستاندورد) ..

وفى ذكرى الاحتلال البريطانى لمصر، أرسل خطاباً فى ١٤ سبتمبر ١٩٠٧ إلى رئيس وزراء بريطانيا ، يحتج فيه على استمرار الاحتلال الإنجليزى ، وتناقلته الصحف العالمية ، وعلقت عليه مؤيدة وجهة نظر مصر ..

وقد ظل يطالب بالعفو عن مسجونى دنشواى ، حتى أُفرج عنهم يوم ٧ يناير ١٩٠٨ .

لقد حمل مصطفى كامل عبء الزعامة والجهاد صغيراً ، واتجه به عالمياً

فى قوة واقتدار وإيمان .. حمل مصاعب الجهاد المضنية وانفعالاته المثيرة المحزنة القاسية ، ولم يرحم نفسه وضعفه ، ولم يخضع لموجات المرض والإعياء ، بل واصل الجهاد حريصاً غير مبال ، فكان أن ألمَّ به الوَهَن ونال منه الإعياء عند عودته من أوربا فى أكتوبر ١٩٠٧ .. وظل منهوك القوى على مدى ثلاثة أشهر .. ومع ذلك نزل من سرير المرض ليُلقى خطاب الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ، وألقاه موفقًا ورائعًا وعظيماً .. ولكنه عاد إلى سريره ولم يغادره حتى وافاه الأجل المحتوم فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين الموافق ١٠ فبراير ١٩٠٨ .

توفى مصطفى كامل ، زعيم الوطنيين ، عن ٣٤ عامًا فقط ! كان خلالها شعلة من الحماس والوطنية الصادقة والمتدفقة .. وأوصى بالزعامة من بعده لخلفه العظيم « محمد فريد » .. وكان رثاء الأمة المصرية له مظهراً رائعًا وضخماً على وفائها له . رثاه الشعراء والكتاب والطلبة والعمال .. ورثاه كل مصرى وكل بيت .. وترددت أنباء وفاته الفاجعة فى ربوع الدنيا شرقية وغربية ، ذاكرة لمصطفى كامل زعامته الشابة المتوثبة ، وإيمانه وحبه مصر الذى ملأ عليه جوانحه ، واستبساله لنصرة قضية وطنه حتى افتدى بها راحته وشبابه وروحه .. وقد أقامت له الدولة تمثالاً فى قلب العاصمة ، ونقشت على قاعدته بعض عباراته الخالدة :

« لا معنى للحياة مع اليأس.. ولا معنى لليأس مع الحياة » ..

و « إن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو لمرة واحدة ، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة ، سقيم الوجدان » ..

ومن كلماته الأثيرة كذلك :

« لو لم أولد مصرياً .. لوددت أن أكون مصرياً » .





ملك حفنى ناصف

(١٨٨٦-١٩١٨)

باحثة البادية

عندما سمحت وزارة المعارف المصرية للفتيات بالتقدم لامتحان الابتدائية لأول مرة ، عام ١٩٠٠ ، كانت ملك حفنى ناصف أول فتاة مصرية تنجح فى هذا الامتحان ، وتنال هذه الشهادة ، وكانت يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها ..

ومنذ ذلك الحين ، وحتى وفاتها فى الثانية والثلاثين ، كرست حياتها تلك القصيرة العريضة للدعوة إلى نهضة المرأة العربية وتعليمها فى بداية القرن العشرين .. وهى رائدة من الرائدات اللاتى حَجب فكرهم عن الناس عدم اهتمام الدارسين بها ..

ولدت ملك حفنى ناصف – باحثة البادية – فى حى الجمالية بالقاهرة فى ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٦ ، ونشأت فى كنف والدها « حفنى ناصف » ، العالم والأديب والقاضى وكبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، وقد كان من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، ومن أصدقاء الشيخ محمد عبده ، وقد عاصرته ابنته ملك وهو يشتغل بالقضاء وبالتعليم ، وبالاستزادة من العلم ، فى مصر والخارج ، وبممارسة الإصلاح ومقاومة الفساد والطغيان .. فتشبعت بروحه ، واتخذته مثلاً أعلى .. كما كانت قراءاتها تشحذ همتها ؛ لأن هذه القراءات كانت عربية إسلامية ، فى إطار من التمدن الغربى .

كما شغفت ملَك بشعر المراثى عامة ، وشعر المتنبى خاصة .. فأخذت عن المتنبى اعتداده بالنفس مما قوّى شخصيتها ، فإذا هى تحس خصائصها العامة ، خصائص العربية المسلمة ، وخصائصها الخاصة ، الأنثى المهضومة الحق - إحساسًا قويًا يدفعها دفعًا إلى أن تقتحم ميدان الدعوة إلى رقى المرأة ونهضتها ..

وقد بدأت ملَك جهادها مبكرًا ، فكانت تتولى منذ صغرها الكثير من شئون البيت ، وشئون رعاية إخوتها ، حيث أقعد المرض والدتها ، وكانت هى الكبرى ، فكانت تكرس إجازاتها الصيفية لإعادة تنظيم البيت وتجديد كل ما يلزمه من مخيطات المفروشات ، وإكمال ما ينقص من أدوات ، وإعداد ملابس العام لوالديها وإخوتها ، كما كانت تحبو صديقاتها بخالص الود والنصح وتعطى لهن الكثير مما ييُسر عيشهن ومن يَعُلن ، ولا سيما فى المواسم والمناسبات كبدء السنة الدراسية وحلول الشتاء والأعياد والسفر والزواج والوفاة ..

كما كانت تؤم بيوت صاحباتها ومعارفها ، وما تزال بهن حتى يرسلن بناتهن إلى المدرسة على أن ترعى هى بنفسها أولئك الصغيرات رعاية خاصة ..

ولما نجحت فى الشهادات الدراسية ، الابتدائية عام ١٩٠٠ ، ودبلوم المعلمات عام ١٩٠٣ ، عُينت معلمة للبنات فى المدرسة السنية ، وأتمت تعليمها بها ، بعد أن بدأت حياتها التعليمية فى مدرسة فرنسية ..

وكانت ملَك تقرض الشعر كذلك .. فقد نشرت أول قصيدة لها فى الجرائد وهى فى الرابعة عشرة من عمرها بمناسبة حصولها على الشهادة الابتدائية .. وقالت فيها :

بُشرى لمصر فقد نالت أمانيها ... وأنجح الله بالحسنى مساعيها
فنالت الفخر والمجد اللذين هما ... مِشْكاة نور به ابيضت لياليها

وتقول فى قصيدة أخرى لها تدافع عن بنات جنسها :

أيســـوؤكم منـا قـــيـــام نذيره ... تحـــمى حــــمـــاكم من بَلاءٍ مُحْدِقِ

أيســـركم أن تســـتـــمـــر بناتكم ... رهنَ الإســـار ورهن جـــهلٍ مُطْبِقِ

تنتـــقلون لمنتـــدى من قـــهـــوةٍ ... ونســـــاؤكم فى ألف بابٍ مُغْلَقِ

لا تـــدخـــلـــون الـــدور إلاّ بُرْهـــةً ... تردونهـــا لضـــرورة كـــالفندقِ

اليـــوم عُرْسٌ باهظ نفـــقـــاته ... وغـــداً تقـــام قـــضـــيـــةٌ لُمطلقِ

وكانت فى الأزمات الوطنية تلهب الشعور بشعرها .. مثال ذلك تلك القصيدة التى قالتها لدى إحياء قانون المطبوعات عام ١٩٠٩ ، ولقد همَّت الحكومة إذ ذاك بمحاكمتها لدعوتها السافرة إلى الثورة ، ثم عدلت خوف إلهاب الشعور العام ..

وقد أشار سائر كُتاب وشعراء عصرها ، إلى مقدرتها فى قرض الشعر ، ساعدها على ذلك مداومتها على حفظ شعر المتنبى والبارودى والبحترى وشوقى وحافظ ، وغيرهم من الشعراء القدامى والمحدثين .

وقد قال عنها حافظ ابراهيم :

لـــلـــه درك إن نـــظـــمـــتِ ... ودر حـــــفنى إن نـــثـــــر

يقصد نظمها الشعر ، ونثر أبيها حفنى بك ناصف ..

وقد بدأت ملك ، بعد حصولها على الشهادة الابتدائية تنشر فى جريدتى « المؤيد » و« الجريدة » ، قصائد وبحوث بتوقيع « باحثة البادية » ، وهو الاسم الذى اشتهرت به بعد ذلك ، إذ كان من الشعائر الاجتماعية ألا تُعرف أسماء الفتيات فى ذلك الوقت ! .

وفى عام ١٩٠٧ اقترنت باحثة البادية من « عبد الستار الباسل » ، رئيس قبيلة الرماح بالفيوم ، والذى كان من أكبر الأثرياء ، وظلت حبيسة

إحـدى عشرة سـنة تستـعر داخلهـا (نار مـقدسـة) ، حدثت « مى زيادة » الأديبة الشهيرة عنها ، فيما تبادلتاه من رسـائل ، فضلاً عن أنها اكتشـفت بعد زواجها أن زوجها متزوج من ابنة عمه ، وأن له ابنة منها ! .. وكان هذا الزواج دافعًا قـويًا لأن تكرس الباحـثة جهودهـا حتى وفاتها عام ١٩١٨ فى مناقشة مشاكل الزواج والحياة الزوجية ؛ بل ونحن نلمس من خلال كتاباتها أنها جعلت من الزواج المحور الذى تدور حوله قضايا المرأة ..

وقد استطاعت بشاعريتها أن ترسم صورة للمرأة فى كافة أدوارها فى ذلك العـصـر .. فـقـالت : « تلك المرأة المسلوبة الحق المظلومـة فى كل أدوار حياتها . نراها يُتشاءم منها حتى وهى جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجبـاه مقطبة والصـدور منقبـضـة .. كأنما كـان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى ! .. وليس حالنا فى سن الشباب بأدعى للطمأنينة منـه فى الطفـولة فإننا لا نزيد عن المساجين شيـئًا إلاّ بالاسم فـقط .. وإذا تزوجنا لم نزد إلا ضـعـفًا فيقوى الرجل ويستبد » .

ولذا كان عليها أن تواجه ذلك كله ، وأن تشارك فى المعارك القائمة حول المرأة فى ذلك الوقت بتقديم الحلول والمقترحات ..

ولقد كانت قضية الزواج من أهم القضايا التى تشغل الرأى العام فى ذلك الوقت ، فقد كانت هناك مشاكل يعانى منها المجتمع المصرى - لم نعد نهتم بها الآن - كتعدد الزوجات (الضرائر) ، وكثرة الطلاق ، واندفاع الشباب المثقف للزواج من الأجنبيـات ، ثم مـا كـانت تلقـاه المرأة من مـعاملة قـاسيـة على يد زوجها ، كل ذلك جعل من الزواج قضية تناولتها كافة الأقلام ..

وكان قلم باحـثة البادية من هذه الأقلام .. فـقد كـتبت تـصف الزواج فى أيامها فقالت :

« طريقة الزواج فى مصر معوجة عقيمة نتيجتها فى الغالب عدم الوفاق بين الزوجين ، يقيم الرجل معالم العُرس أياماً وليالى ويتكبد مصاريف جمة لعروس لم يرها عمره ولم يتأكد من حسن أخلاقها أو جمال نفسها ، إنما سمع عن بياضها وسمنها أو مالها من الخاطبة التى تصف حسب نصيبها من مكافأة العروس وأهلها » .

وكتبت تقول عن الضرة : « اسم فظيع تكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته » ..

وقالت عن الطلاق : « أى ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه ، فتفرق بينهما وتشتت مُلْتَأمَهُما »

وقد وضعت الباحثة مجموعة من الشروط كحل لمشكلة الزواج يمكن إيجازها على النحو التالى :

اشتراط أن يقوم الزواج على الحب - ضرورة تعرف الخطيبين بعضهما على بعض قبل الزواج - تقييد الطلاق وتعدد الزوجات يجعل ذلك بإذن من القاضى ..

وهى حين تعرض حلها ذاك تربطه دائماً بتعاليم الدين الإسلامى ، مما جعل البعض يقول وقتئذ : إنه لا ينقصها سوى « العمامة » لتصير شيخاً ، ولعلها من جهة كانت متأثرة بتعاليم وأفكار الشيخ محمد عبده ، ومن ناحية أخرى فلعلها كانت تضع سياجاً يحميها من أن تُتهم فى صدق إيمانها ، وإلتزامها بتعاليم الإسلام ..

كما دعت ملَك حفنى ناصف إلى تربية الفتاة المصرية وتعليمها .. فقالت : « علموا المرأة تعليماً حقًا ، وربوها تربية صحيحة ، وهذبوا النشء ، وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً ، ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة » .

وقالت أيضاً : « ما الغرض من تربية البنت على العموم والمصرية على الخصوص ؟ .. الغرض تقريبها من السعادة بقدر الإمكان ، واعدادها لأن تكون عضواً حياً نافعاً فى جسم الأمة وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة » .

وأشارت كذلك إلى دور المرأة السياسى ، فقد وضعت كتاباً فى (حقوق النساء) ، أنجزت منه ثلاث مقالات : الأولى : فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية ، والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية : فى حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة ، والثالثة فى حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب ..

وبالرغم من أن نصوص تلك المقالات غير موجودة الآن ، إلا أن ذلك بلا شك يضع باحثة البادية فى موضع الريادة بشأن المطالبة بإعطاء المرأة حقوقها السياسية .. لقد كانت مَلَك شعلة من النشاط ، برغم حياتها القصيرة ، فقد قامت بتأسيس « اتحاد النساء التهذيبى » وجمعية للتمريض على غرار الصليب الأحمر ، كانت النواة لتأسيس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل ، وكانت تلك الجمعية تقوم بإرسال الأدوية والأغطية والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بمصر والبلاد العربية كلما دعت الحاجة ..

كما أنشأت فى بيتها مدرسة لتعليم السيدات التمريض ، ووضعت برنامجا لإقامة مشغل للفتيات ، وملجأ للمعوزات (المحتاجات) ، وكانت تنوى وقف خمسة وثلاثين فداناً بالفيوم – ملكها الخاص – المشغل والملجأ ؛ ولكن القدر لم يمهلها لتأسيسها ..

وعندما تزوجت مَلَك وانتقلت إلى قصر الباسل ببادية الفيوم ، رأت الأعراب يعيشون فى حالة بدائية لا يعرفون العلم ولا النظافة ولا الصحة ، إلاّ بالسماع ! . ووجدت سادتهم وكبراءهم – وكانوا من أرباع المتعلمين – ينعمون بجهل أولئك وإملاقهم وتأخرهم ، فعمدت مَلَك ، بعد جهود مضنية إلى

إرسال بنيهم وبناتهم إلى بعض المدارس فى الفيوم والقاهرة ، واعتنت بصحتهم وملبسهم وتغذيتهم ورفع مستواهم ، بما كانت تقوم به شخصيا دون عون أومساعدة من أحد .. ويعلم من شهدوا تلك البيئة - قبل زواج ملَك إلى أخريات حياتها هناك - أنها استطاعت بعد أحد عشر عاما ، قضتها هناك فى الفيوم ، أن تقلب هذه البقعة إلى منطقة من أكثر مناطق الريف مدنية ..

وكانت باحثة البادية - بجانب ذلك كله - أول امرأة تشارك فى المؤتمر المصرى الأول الذى عُقد بدار سينما روكسى بمصر الجديدة ، لبحث شتى الاتصالات والتوجيهات التى يجدر بالأمة والحكومة إنتهاجها عام ١٩١١ ، كما قامت بإلقاء الخُطب والمحاضرات فى المناسبات المختلفة ..

وقدمت اقتراحات للأميرة الهندية « بهوبال » بشأن رفع مستوى المرأة الهندية .. واتصلت بالسيدة « خالدة أديب » التى عُينت فى منصب أول وزيرة فى البلاد الإسلامية الحديثة (وزيرة معارف فى أول وزارة شكلها كمال أتاتورك) .. وقد استطاعت باحثة البادية عن طريقها نشر مجموعة من المقالات بجريدة « تركيا الفتاة » ..

كما أنها كتبت كتابا بعنوان « النسائيات » ، بعد زواجها بثلاث سنوات ..

وعندما أُذيع خبر إحياء مشروع الجامعة المصرية كانت ملَك الآنسة الوحيدة التى ألَّفت لجنة وجمعت قدرا من المال ، ذُكر على وجه التحديد فى التقرير الأول الذى رُفع إلى رئيس الجامعة وقتها ..

لقد قال الدكتور « منصور فهمى » عنها : « كانت ترسم خطوط الإصلاح وهى متسمة بميسمها الشرقى والمصرى والإسلامى ، وتعتز بكثير من مقومات مصر والشرق والإسلام ، مادامت تلك المقومات لا تُجافى الطبع السليم فى شىء ، فمن أجل ذلك كله كانت صلتها وثيقة بالميدان الذى تعمل فيه ، ومن ثم كان لصوتها صدى مسموع ، وكان توجيهها مطاعا مقبولاً » .

أما تشارلز آدامز فى كتابه « الإسلام فى مصر » فيقول عنها :

« أؤكد لك .. أنها سارت على نهج الإمام الشيخ محمد عبده فى التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى ، وبين الحياة الاجتماعية والدينية والأدبية فى مصر » ..

وقد قضت ملك حفنى ناصف ، أو باحثة البادية ، نحبها فى ١٧ من أكتوبر عام ١٩١٨ .. واعتبرت الرائدة الأولى فى تعليم البنات .. والرائدة الأولى فى رد اعتبار المرأة إليها ، وتحسين حال الأسرة .. وحسبها أنها وضعت الأسس المتينة لمتابعة البحث والإصلاح لمن لحق بها من المصلحين والمصلحات ..

وقد رثاها شاعر القطرين ، خليل مطران ، بعد وفاتها بقصيدة .. قال فيها :

يا آية العصر حقيق بنا ... تخليد ذكراك على الدهرِ
جاهدت لكن النجاح الذى ... أدركته أغلى من النصر
بدت تباشير الحياة التى ... جُدت فحيى طلعة الفجرِ
يا من ذَوَت فى زهرة العمر ... ما أقسى الرَدَى فى زهرة العمرِ
ذلك دَين لك فى عُنقنا ... قضاؤه ضربٌ من البّر





موتســارت

(١٧٥٦-١٧٩١)

عبقري الموسيقى

خمسة وثلاثون عامًا فقط هى عمر ذلك الموسيقار العبقرى الموهوب ! .

ولد ولفجانج أماديوس موتسارت (أو موزات) Mozart ، فى الساعة الثامنة مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يناير عام ١٧٥٦ بمدينة « سالزبورج » بالنمسا ، وكان أبوه « ليوبولد موتسارت » عازف الكمان الأول ورئيس الفرقة الموسيقية عند كبير الأساقفة .. ومن ثم نشأ الطفل فى بيتٍ تعطره النغمات الشجية ، وتملؤه الآلات الموسيقية من كمان إلى بيانو إلى غيره ، وتعوّد على سماع الألحان التى تتسرب إلى وجدانه وتحركه ..

وأحب الموسيقى ، وأخذ يراقب والده الفنان وهو يشرح كيفية اللعب على البيانو لابنته « ماريا آنا » شقيقته التى كانت تكبره بخمس سنوات ، وما أن ينتهى الأب من درس ابنته حتى ينقض الطفل موتسارت الذى لم يتعدّ الثلاث سنوات على البيانو ، ويلعب كل ما كان الأب يشرحه لشقيقته الكبرى ، مما لفت انتباه أبوه إلى عبقرية ابنه المبكرة ، فاعتنى به ..

وفى الرابعة من عمره ، كان موتسارت يؤلِّف قطعًا موسيقية من وحيه بعد أن رفض القوالب التقليدية الموجودة فى ذلك الوقت .. ولما بلغ عامه السادس ، كان يعزف على البيانو فى الحفلات العامة أعقد المقطوعات الموسيقية وأصعبها ، مما دعى إلى رسم الدهشة والإعجاب على وجوه السامعين .. ولم تكتف براعة

الطفل المعجزة على العزف بطريقة واحدة ؛ بل كان يعزف المقطوعة الموسيقية بأكثر من طريقة .. ولم تعرف موهبة الطفل الطريقة التقليدية فى التعليم بالذهاب إلى المدرسة ؛ بل رأى أبوه أن الحياة والأسفار والقراءة تكفى لتنمية موهبة ابنه وصقلها ، فأخذه هو وشقيقته ماريا وطاف بهما مدن أوربا وألمانيا وفرنسا ولندن وهولندا وإيطاليا ..

وعزف موتسارت ، وهو فى هذه السن المبكرة ، فى بلاط ڤيينا الامبراطورى ، وأمام مدام دى بومبادور ، ولويس الخامس عشر فى فرساى ، وچورج الثالث ملك إنجلترا ، وأمير أورانج فى لاهاى بهولندا .. واستمرت هذه الرحلة أربع سنوات ، أفاد منها الطفل موتسارت كثيراً من الخبرة والتجربة وسماع الفرق الموسيقية المختلفة ، كما تعرف على الملوك والأباطرة والأمراء ، حتى أنه كان يلقب بـ « الأرستقراطى » ؛ لأنه الطفل الوحيد من عامة الشعب الذى كان يُسمح له باللعب مع أطفال العائلة الملكية فى النمسا .. والغريب أنه كان يكره الأرستقراطيين ، ولا يشعر نحوهم بالحب أو الاحترام ! .

واستطاع موتسارت ، وهو فى العاشرة من عمره ، أن يُلم بكل فروع وفنون الموسيقى من عزف وتأليف وقيادة .. وقد أكرمته بلدية سالِزبورج فولّته قيادة أوركسترا المدينة ، وكان ما يزال يرتدى البنطلون القصير ! .

وعندما سمع الموسيقار النمسوى الكبير « هايدن » ألحانه أُعجب به كثيراً ، وعبّر عن إعجابه هذا لوالده قائلاً له : « أقسم بشرفى أن ابنك موتسارت هو أعظم من سمعت لهم من الموسيقيين » .

ولما بلغ الرابعة عشرة ، سافر إلى الفاتيكان بروما ، ليستمع إلى ترانيم الكورس ، وأعجبته ترنيمة صعبة كان الفاتيكان يحتفظ بأصولها وكتابتها سراً ؛ بل إنه حرم على بقية الموسيقيين حفظ هذه الترنيمة .. واستمع موتسارت إلى الترنيمة التى استغرقت ثلاث ساعات ، وأعجبته كثيراً .. فذهب إلى بيته ، وكتب

لحن الترنيمة كله من ذاكرته ! ولما عرف البابا لم يُصدر قراراً ضده ، بل عبر عن إعجابه بموهبته ، ومنحه وساماً ذهبياً ..

وكتب موتسارت عشرين سيمفونية قبل أن يصل إلى السادسة عشرة .. وأدت موهبته المقلقة هذه ، وبراعته وشهرته العريضة ، إلى حقد وغيره الموسيقيين التقليديين ، فراحوا يحاولون الإساءة إليه بشتى الطرق والوسائل .. فامتنعوا عن عزف مقطوعاته فى الحفلات ، ودفعوا رشوة إلى بعض الموسيقيين حتى إذا ما عُزفت مقطوعاته أفسدوها بسوء العزف ..

وتعتبر طفولة موتسارت العصر الذهبى فى حياته ، إذ أنه كلما كان يتقدم فى السن كلما ساءت الحياة أمامه ، وكثرت مشاكله ، فبعيداً عن حقد زملائه وغيرتهم ، كانت حالته المادية فقيرة ، وكان متعهدو الحفلات لا يعطونه حقه الذى يستحق ، وكانوا يسلبون ماله .. ومثال ذلك أجره عن أوبراه الشهيرة « دون جوان » ، فلم يزد عن خمسة وعشرين جنيهاً تقريباً ! أجرة التأليف والعزف والبروفات وقيادة الأوركسترا ! .

ورغم الفقر والعوز ، كان موتسارت يعمل وينتج ويقدم للإنسانية أبرع المقطوعات الموسيقية الخالدة .. وكان يسهر ويعمل ويقف من نفسه موقف الناقد الشجاع الذى يمزق بعض أعماله التى لم تعجبه ، ويوقف بعض أعمال أخرى ولا يتمها ..

سأله غلام ذات مرة : كيف أستطيع تأليف سيمفونية ؟ .. فأجابه موتسارت بأن تأليف السيمفونية هو قمة التأليف الموسيقى ، وأنه يجب أن يبدأ بتأليف مقطوعات صغيرة ثم يتدرج حتى يصل إلى السيمفونية .. ولم تعجب الصبى إجابة موتسارت ، فقال له : لكنك كنت تكتب السيمفونيات وأنت صغير ! .. فابتسم قائلاً : لقد كنت صغيراً حقاً ؛ ولكنى لم أسأل أحداً كيف أؤلفها ! .

وكان موتسارت حتى الخامسة والعشرين ربيعًا من عمره متفرغًا للعمل والفن الذى وهبه كل حياته ، رغم أنه لم يكوّن ثروة ولا شىء من ورائه ، ولكنه كان مؤمنًا به .. ولم يفكر حتى هذه السن فى الزواج أو الحب ؛ لأن عمله ملأ عليه حياته ، وملك كل وقته ..

ولكن الظروف تشاء أن يزور ذات يوم « فِرد ويبر » ، الرجل الذى ينسخ له ألحانه ، فيتقابل مع ابنته « لويزيا » و« كونستانس » .. الأولى جميلة ممشوقة القد ، والثانية قبيحة المنظر والقوام معًا .. وأحب موتسارت لويزيا .. إلا أنها انصرفت عنه .. فلم تكن تشعر نحوه بأى عاطفة .. ثم أنه كان قصير القامة ، أشبه ما يكون بالأقزام ، نحيفًا ، يحمل على كتفيه الضعيفتين رأس كبير ضخم ..

وبرغم أن هذه الرأس الكبير الضخم يحمل عبقرية فذة نادرة الوجود ، إلا أن كثير من الفتيات لا يعترفن بذلك ! .. كما فعلت لويزيا هذه ..

ويشاء حظه التعس ، ولظروفٍ ما ، أن يتزوج أختها الدميمة « كونستانس » ، فى عام ١٧٨٢ .. إلا أنه ظل محبًا للويزيا طوال حياته حتى زاره الموت ! .

وكان زواج موتسارت من كونستانس موضع دهشة وتعجب الناس .. حتى إن امبراطور النمسا ذاته سأله قائلاً : لماذا لم تتزوج امرأة غنية ؟ .. فقال موتسارت فى اعتداد بنفسه : إننى واثق يا مولاى من أن عبقريتى سوف تمكننى من أن أعول المرأة التى أتزوجها ..

ولم يكن الزواج لهذا العبقرى الموهوب عامل استقرار وراحة وهناء ؛ بل كان عامل قلق واضطراب وفقر ، مما جعله يستدين ويقبل أعمالاً بأجور ضعيفة لا تتناسب مع عبقريته ومكانته الفنية ، حتى يعيش ويسد مطالب زوجته الكثيرة .. وازداد الحال سوءًا عندما أصيب بمرض أقعده وأضناه ، قيل : إنه

التيفوس ، أو الحمى الروماتيزمية ، أو التيفود .. كما أنجبت له كونستانس ستة أولاد ! .. مما زاد من مسئوليته وديونه ، ونغص عليه حياته .. فالفقر وزوجته المستهترة من جانب ، والأولاد الستة والمرض من جانب آخر ..

ورغم متاعب الحياة والفقر والمرض والزوجة المستهترة وكثرة الأولاد ومطالبهم ، إلا أن موتسارت ظل يعمل ويعمل من أجل الفن أولاً ومن أجل هؤلاء ثانياً ..

ولقد أسس بأعماله الفنية الخالدة مدرسة فيينا للموسيقى التى أتمها بعده الموسيقار بيتهوفن .

وكان موتسارت فريد عصره ، أو كما يسمونه العبقرية اليتيمة فى ميدان العزف والتأليف والموسيقى ..

وترك لعالم النغم الموسيقى تراثاً خالداً مازال العالم المتحضر ينهل منه ويستمتع به ..

وقد ألف ٤١ سيمفونية .. أهمها السيمفونيات أرقام ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .. وقد ألّف ثلاث سيمفونيات عام ١٧٨٨ ، فى أقل من شهرين ! . وهى قدرة نادرة على سرعة التأليف الموسيقى إذا عرفنا أن بيتهوفن قضى ست سنوات فى تأليف سيمفونيته الأخيرة ، التاسعة ، والتى أسماها « المرح والسعادة » .. ويعتقد البعض أن موتسارت كتب أكثر من ٤١ سيمفونية ..

وفى كل ما كتب وألّف كان سريعاً ودقيقاً ورائعاً فى ذات الوقت ، ولم تدفعه السرعة إلى الإهمال ومجرد كسب المال وحسب .. ومما يدل على عبقريته أيضاً أنه كتب افتتاحية أوبراه الشهيرة « دون چوان » فى ساعتين فقط ، مع أن ذلك عملاً ضخماً ورائعاً ويستغرق ساعات طويلة ! .

وقد كتب موتسارت ١٦ أوبرا .. وضع أولاها « باستيان وباستيين » ، وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره ، أى فى عام ١٧٦٨ .. وكتب الأخيرة « الناى السحرى » فى عام ١٧٩١ ، قبل وفاته بثلاثة أشهر ، وهذه الأوبرا تعبر عن الحياة فى مصر أيام الفراعنة ..

ومن أسماء أوبراته الأخرى : « دون چوان » و« كلهن كذلك » و« دون چيوفانى » و« مدرسة العشاق » و« زواج فيجارو » .. وتعتبر افتتاحية أوبرا (زواج فيجارو) هذه من أشهر افتتاحيات الأوبرات .. وهى ليست أفضل ما وضع موتسارت من أوبرات ؛ ولكنها أشهرها ، وهى نقطة تحول فى الأوبرا عامةً ، وكانت بداية تطوير فن الأوبرا إلى ما هى عليه اليوم ..

وقد كتب موتسارت اثنتى عشرة أوبرا باللغة الإيطالية ، وهو أمر عجيب بالنسبة لنمسوى لغته الألمانية ؛ ولكن العجب يزول عندما نعرف أن الناس فى عصره كانوا يرون أن الأوبرا أداة تسلية إيطالية .. وكان معظم الذين يقومون بالغناء الأوبرالى إيطاليين ، وكذلك كان مؤلفو موضوعات الأوبرات ، ومتعهدو الحفلات ، وكل من له صلة بإنتاج الأوبرا ..

لقد كان موتسارت هو واهب الحياة للأوبرا ، وهو الذى أضفى على أبطالها الشخصية الموسيقية ، مع أن كثيرين من الموسيقيين قد سبقوه إلى وضع الأوبرات ..

وكان ذا قدرة خارقة على نقل الموسيقى من أحد أبطال أوبراته إلى بطل آخر على نحو طبيعى مقبول .. بل لقد كان فى هذا أبرع من شكسبير نفسه فى نقل حواره بين أبطال مسرحياته .. كما ساعد كثيراً على أن تكون الأوبرا « أوبرا الحركة » .. وبجانب السيمفونيات والأوبرات ، كتب أيضاً عشرات القطع الموسيقية الأخرى .. وقد أخذ المرض يتمكن من موتسارت شيئًا فشيئًا ، ومع الفقر جعل حياته جحيماً لا يطاق .. وفى هذه الحالة السيئة جاءه رجل يطلب

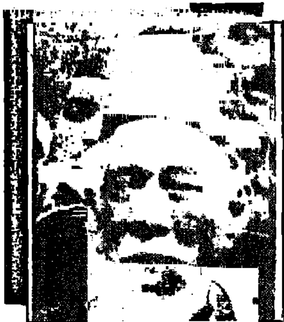
منه كتابة رثائية حزينة ، فتشاءم منه ؛ ولكنه كان مضطراً أمام فقره إلى قبول هـذا العرض حتى يستفيد بالأجـر .. وقال وهو يكتب هـذه المرثيـة الحزينـة : « لكأنى أكتب صلاة جنازتى » !.

وفى مساء ٤ ديسمبر عام ١٧٩١ ، نادى موتسارت على إحدى قريباته ، ممن كانت معه فى أيامه الأخيرة ، وقال لها : « إنى أذوق الموت فى فمى » ! .. وظل يعانى من سكرات الموت ، حتى حانت وفاته فى الساعة الواحدة صباحاً من يوم ٥ ديسمبر ١٧٩١ .. وانتهت العبقرية اليتيمة الفقيرة .. مات موتسارت وعمره ٣٥ ربيعاً .. مات الموسيقار الذى كان المستمعون إليه يرفضون مغادرة مقاعدهم ويلحون إليه أن يعود إلى العزف مرات ومرات .. والذى قال عن نفسه : **« أنا مدين لفقرى بنجاحى .. فقد ولدت أجمل موسيقى كتبتها من وحى حياتى التي لفها الحزن والبؤس والشقاء »** .. والذى قال عن الموسيقى : **« إنها الحيـاة »** .

ولشدة الفقر ، لم يجد أهله مصاريف الجنازة ! .. ويقال : إن جثته بقيت فترة حتى علم القيصر بذلك فأرسل المال الضرورى لدفنه .. وظل البؤس يصادفه حتى فى أثناء جنازته ، فقد هبت عاصفة ثلجية شديدة دفعت بعض أصدقائه المشيعين القليلين إلى الهرب فى كل اتجاه ، وترك النعش فى العراء وسط الطريق ! .. لولا أن بادر شخص مجهول وحمل النعش دون أن يعرف صاحبه ، ودفنه فى مقابر الصدقة للفقراء ! .

وتخليداً لذكراه ، أقيم له عام ١٨٤١ تمثالاً من البرونز فى سالزبورج .. مسقط رأسه .





سعد زغلول

(١٨٥٧-١٩٢٧)

زعيم الأمة

– ولد سعد باشا زغلول فى قرية « ابيانه » مركز فوّه بمحافظة كفر الشيخ فى يوليو من عام ١٨٥٧ .. وتوفى والده وهو فى السادسة من عمره ، فكفله عمه الأكبر وزوج خالته .. وحفظ القرآن فى قريته حفظًا جيدًا عندما بلغ الحادية عشرة من عمره ، ثم ظل يتردد على شيخ يجاور قريتهم لدراسة الفقه والنحو والتجويد سنتين أو ثلاث سنوات ..

وقد اتجه إلى الجامع الأزهر ، قبلة طلاب المعارف الإسلامية ، فى عام ١٨٧١ ، وأسهم – وهو مازال طالب علم – فى الدعوة لإصلاح الأزهر ، وكان حريصًا على أن يكون من تلاميذ الإمام محمد عبده المتتبعين لنهجه وخطاه ؛ ولذلك أصبح من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، أستاذ الإمام ، واتصل به اتصالاً وثيقًا ، فأفاد منه القدرة على التعبير ، خطابةً وكتابةً ..

وقد أُعجب الأفغانى به ، فاختاره عام ١٨٨٠ ، ليسهم معه فى تحرير الوقائع المصرية ، وقد جعلا من هذه الصحيفة الرسمية منبرًا للثورة الفكرية والدستورية ، تندد بالاستبداد وتبشر بالحرية ، وقد أفاد سعد من خلال عمله دراسة وفهمًا لمباحث القانون ..

وفى نوفمبر عام ١٨٨٢ ، عُين ناظرًا لقلم قضايا الجيزة ، وعندما قامت الثورةُ العرابية ، اشترك فيها مع بعض أساتذته وزملائه ، فاعتُقل وخسر وظيفته وصار فى قائمة المغضوب عليهم .

وسعى إلى الاشتغال بالمحاماة ، ثم اتهم مع زميله « حسن صقر » المحامى ، باشتراكهما فى تشكيل جماعة سرية للانتقام من أعداء الثورة العرابية ؛ ولكن اللجنة التى شُكلت لمحاكمتهما قضت ببراءتهما ، وبرغم ذلك ظلا فى الاعتقال أكثر من ثلاثة شهور ، وكانت الحكومة تنوى نفيهما إلى السودان إلا أن وزير الحقانية – العدل – « حسين فخرى باشا » عارض فى ذلك ، وأفرج عنهما ..

وبعد فترة من عمله بالمحاماة ، أشار الإمام محمد عبده بترشيحه لوظيفة نائب قاضى بمحكمة الاستئناف ، وانخرط فى سلك القضاء ، وتدرج فى مناصبه حتى صار مستشاراً فى محكمة الاستئناف ..

وفى أثناء توليه منصب القضاء ، سعى إلى فرنسا وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٩٧ ، وظل فى القضاء حتى عام ١٩٠٦ ، حين دُعى ليكون وزيراً للمعارف .. وفى الوزارة استطاع خلق كيان الوزير وتغليب اختصاصاته وسلطاته كوزير على سلطان المستشار الإنجليزى ..

ومن مآثره الخالدة جعل التعليم بالعربية بعد أن كانت جميع المواد تُدرّس بالإنجليزية ، كما أنشأ مدرسة القضاء الشرعى ، التى يتخرج فيها القضاة الشرعيون القادمون من الأزهر ، وذلك بالرغم من معارضة الخديوى عباس الثانى ..

كان أول وزير مصرى يتحدث إلى الصحفيين بالأقاليم ، وأبطل التحية العسكرية التى كانت تؤدى للوزراء ، وهو أول من قرر تعطيل الدراسة احتفالاً برأس السنة الهجرية ، ومكن المصريين من الوظائف الكبرى .. وفى عام ١٩١٠ ، عُين وزيراً للحقانية – العدل – وحرص أشد الحرص على كرامة رجال القضاء ، كما حرص على أن يجعل من المحاماة مهنة سامية ، ونصَّب من نفسه حامياً للقُصَّر والمحجور عليهم بالتفتيش والتشريع .. كما انتخب رئيساً

للجمعية التشريعية عام ١٩١٤ ، بعدما رشّح نفسه عن دائرتى بولاق والسيدة زينب .. ولكن الحكومة واللورد كتشنر عملا على إقصائه ، ووضع العراقيل فى سبيله حتى لا يتمكن من بسط سلطان الأمة على مقدراتها ..

ونشبت الحرب العظمى فى يوليو عام ١٩١٤ ، وفرضت بريطانيا الحماية على مـصـر ، ولم تنعـقـد الجـمـعـيـة بعـد ذلك .. ولما انتـهت الحـرب العظمى ، وانتصرت بريطانيا قام سـعد بتوكيل من الأمـة المصرية بالدفاع عن قضية الوطن ، فتصدى لبريطانيا العظمى المنتصرة التى تهيمن على مصر وعرشها ..

وتألف الوفد المصرى برئاسة سـعد ، وفى ١١ من نوفمبر ١٩١٨ ، أُعلنت الهدنة وانتهت الحرب ، فسعى سعد زغلول مع زميليه : عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى إلى دار مندوب الحماية البريطانية السير « ونجت » ، وطالبوه باسم الأمة بالاستقلال التام ..

ثم حاول الوفد السفر إلى باريس ، حيث عُقد مؤتمر السلام ، للسعى فى سبيل قضية الوطن وتخليص مصر من نيران الاحتلال ، كما حاول السفر إلى بريطانيا ذاتها ، لمفاوضة الإنجليز أنفسهم ؛ ولكن السلطات الإنجليزية والمعتمد البريطانى وضعوا العراقيل أمامه وأمام الوفد ..

وتصدى سعد لهذا المنع بالاحتجاج المكتوب تارة وبالخطب والبيان تارة أخرى .. فبعث البرقيات إلى مؤتمر السلام فى باريس ، ثم إلى الحاكمين فى إنجلترا ، كما خطب فى الاجتماعات العامة فى داره وفى منازل أعضاء الوفد وفى بعض الأماكن العامة ..

وصار بيته مقصد كل العاملين لقضية الوطن ، حتى سماه الشعب بيت الأمـة .. ولكن محاولاته باءت بالإخفاق ومُنع من السفر للدعوة إلى استقلال مصر .

وحاول حسين رشدى ، رئيس الوزراء وقتئذ ، أن يسافر هو نفسه ، فرفضت السلطات الإنجليزية السماح له بالسفر ، فسعى إلى السلطان أحمد فؤاد فى سبيل ذلك ، فأُجيب إلى طلبه .. ولكنه شعر بحرج موقفه لأن الأمة كلها تقف خلف سعد وزملائه ، فطالب بسفر الوفد أيضاً ؛ ولكن طلبه هذا رُفض ، فقدم استقالته للسلطان ..

ولم يجد أحمد فؤاد من يقبل تأليف الوزارة ، وظلت البلاد بلا وزارة مدى أربعة أشهر .. وأحست السلطات الإنجليزية بمدى قوة الوفد ، فاستأذنت لندن فى اعتقال سعد ونفيه ، فوافقت على ذلك .. وبالفعل ، تم نفى سعد زغلول إلى جزيرة « مالطة » ، ومعه اسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وحَمَد الباسل ..

ومن أجل ذلك ، قامت ثورة مصر الكبرى ، فى مارس عام ١٩١٩ ، ضد الاستعمار البريطانى وأعوانه ، وشارك الجميع فى هذه الثورة ، الرجال والنساء والموظفين والطلاب والعمال والفلاحين والأعيان .وعمَّت الثورة جميع أنحاء البلاد ..

وسقط فى يد الإنجليز ، وسمحوا للوفد بالسفر إلى باريس ، فقام أعضاء الوفد فى مصر على باخرة رست فى جزيرة مالطة حيث ركبها سعد وزملاؤه ، وسافروا إلى باريس فى إبريل عام ١٩١٩ ، وظل سعد فيها يدير معركة الدفاع عن قضية مصر ، ويبعث رسله من هناك لمتابعة التطورات وإحاطة الرأى العام فى مصر بما يبذله الوفد من جهود فى أوربا وفى أمريكا .

ولما أحس الإنجليز بثمرة الدعاية ، وخاصة فى أمريكا ، بعثت بلجنة يرأسها اللورد « ملنر » ، لسؤال المصريين عن مطالبهم ، وتقرير نظام الحكم الذى يرتضونه فى ظل الحماية البريطانية ، وقد جاءت إلى مصر فى ٧ ديسمبر عام ١٩١٩ ؛ ولكنها قوبلت بمقاطعة إجماعية .. وكان سعد قد استطاع ، وهو فى باريس ، أن يوجه الأمة فى مصر إلى مقاطعتها .

وفي ٢٠ مـارس ١٩٢٠ ، سـافـر « عـدلي يكن » للقـاء سـعـد في باريس ليتبادل الآراء وتنسيق الجهود في سبيل الدعوة لقضية الوطن ، كما عاد اللورد « ملنر » من مصر وهو مؤمن بوجوب التفاوض مع الوفد المصرى ، دون سواه ، فبعث برسالة إلى الوفد في باريس لإجراء المفاوضات في لندن ، وكان ذلك بوساطة عدلي يكن باشا .

وسافر سعد مع بقية أعضاء الوفد إلى لندن ، وسارت المفاوضات هناك في مناقشات وجدل ثم تعثرت ، ثم تفرق الوفد شيعًا وأحزابًا واختلفوا فيما بينهم بسبب سياسة الإنجليز التي نجحت في بث الفرقة بين أعضاء الوفد .

وعاد عدلي يكن من لندن ، وأصبح رئيسًا للوزراء ، ثم عاد سعد إلى مصر في إبريل ١٩٢١ ، حيث استقبلته الأمة في إجماع منقطع النظير ، انطوى على معنى تنصيبه زعيمًا .. ثم فاوض رئيس الوزراء على تأليف الوفد الذي يمثل البلاد في المفاوضات التي لم تقطع من جانب الإنجليز ..

واشتد الخلاف بين سعد وعدلي يكن على رئاسة الوفد ، وهل هي للزعيم الشعبي أو لرئيس الوزراء ؟ ولأسباب كثيرة متشعبة اتجهت الوزارة لإجراء المفاوضات مستقلة ..

وسافر الوفد الرسمي إلى لندن برئاسة عدلي يكن ، وظل يفاوض الإنجليز من يوليو إلى نوفمبر من عام ١٩٢١ ؛ ولكنه رجع بعد إخفاق المفاوضات وقدم استقالته من الوزارة ..

وقد خشي اللورد اللنبي من شعبية سعد ودعاياته ، فتم نفيه إلى « عدن » باليمن ، مع مصطفى النحاس وآخرون ، في ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ ، وظلوا في عدن حتى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ومنها إلى جزيرة « سيشل » حتى ٣ ديسمبر ١٩٢٢ ، ثم إلى جبل طارق ٢١ مارس ١٩٢٣ ، حيث غادر جبل طارق إلى فرنسا ، ثم عاد منها إلى مصر في ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ ، حيث استقبل استقبالاً شعبيًا رائعًا لم يقاطعه القصر ، ولم تقاطعه دار المندوب البريطاني ، وأفرج عن المنفيين والمعتقلين من الوفديين .

وأجريت انتخابات فاز فيها سعد بأغلبية كبيرة ، فدُعى إلى تأليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ ، وعندئذ أُفرج عن جميع المسجونين السياسيين وألغى نفقات جيش الاحتلال ، وألزم المستشارين الإنجليز حدود الموظفين العاديين ، وحاول جاهداً أن ينتزع لمصر مكانها الاستقلالى وحقوقها فى السودان ..

ودخل فى مفاوضات مع الإنجليز انتهت بالإخفاق فى أكتوبر ١٩٢٤ ..

وبسبب تلك المفاوضات ، شرع أحد الأشخاص فى قتل سعد زغلول ، فأطلق عليه الرصاص فى ١٢ يوليو من نفس العام ؛ ولكن الرصاص أصابه فى ذراعه .. وفى ١٨ نوفمبر من نفس العام أيضاً قُتل السير « لى ستاك » ، سردار الجيش بالسودان ، فى أثناء وجوده بالقاهرة ، برصاص بعض المصريين .. فثارت ثائرة الإنجليز ، وتوالت تهديداتهم على مصر ووزارة سعد ، وقبضت تعويضاً قدره « مليون جنيه » ، واضطرت وزارة سعد للاستقالة حتى لا تتفاقم الأمور .. ثم أصبح سعد زغلول رئيساً لمجلس النواب ، وأدى واجبه وهو على رأس هذا المجلس أداء القادر المتمكن فى لباقة ودستورية مثالية ، ووضع أسساً قويمة انتهجها خلفاؤه ، وأخص ما يُذكر لسعد أنه أيقظ روح الشعب المصرى وجعله يُقبل على كل ما يرفع من شأنه فى مجالات الاقتصاد والتجارة ، والتعليم والتعمير ، وناهض الاستعمار والقهر معاً ، كما نجح فى التأليف بين أقباط مصر ومسلميها ، ولم يمكّن المستعمر من التفريق بينهما .

وقد تزوج سعد زغلول من شريكة حياته « صفية زغلول » كريمة « مصطفى فهمى باشا » رئيس وزراء مصر ، وذلك فى ديسمبر ١٨٩٥ ، وقد أسهمت معه فى نضاله السياسى وقادت المظاهرات ضد الاستعمار وساندت زوجها ، وسافرت إليه فى منفاه فى جزيرة « سيشل » لترعاه وتشد من أزره .. وقد لقبها الشعب بـ « أم المصريين » .. ولم ينجب سعد أولاداً ، إلا أنه كان يُفاخر هو وزوجته بأن الشعب كله أبناءً لهما ! .

وقد روعت مصر والشرق بوفاته فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وشيعته مصر حكومة وشعبًا ورثاه الأدباء والشعراء ، وضمت الدولة بيته إلى أملاكها ، وجعلته متحفًا يزوره الناس ، وذلك بعد وفاة شريكة حياته .. ودُفن فى مقبرة رائعة أُقيمت أمام بيته .. « بيت الأمة » فى القاهرة .





أجاثا كريستى

(١٨٩٠ - ١٩٧٦)

سيدة الجريمة

كيف كانت تستلهم أفكار رواياتها ؟

إن أفكار رواياتها أو قصصها الجديدة كانت لا تقفز إلى رأسها إلا وهى راقدة فى المياه الدافئة التى ملأت بها حوض الحمام .. وبكلتا يديها أمسكت تفاحة كبيرة ، وراحت تقضم فيها بكسل .. حتى إذا اختمرت الفكرة فى رأسها ، تركت الحمام ، وجلست فوراً إلى مكتبها تسجل فصول روايتها الجديدة ! ..

وهذه الأفكار كانت لا تأخذ إلا بضع دقائق فقط .. أما فصول الرواية فلكى تتم كتابتها كانت تستغرق منها فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر أو أربعة ..

إنها أجاثا ميلر - كريستى فيما بعد - أعظم روائية كتبت فى الجريمة .. وقد استطاعت هذه السيدة خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان أن تملأ الكتب والمسرح وشاشة السينما الكبيرة والصغيرة بأعداد من جثث الضحايا الذين قتلتهم فى رواياتها تلك التى شدت الملايين إليها شداً ، من أول مشهد إلى آخر مشهد فيها ، حتى أصبحت سيدة الجريمة الأولى فى الغرب وفى الشرق على السواء .. فقد كانت قصصها ورواياتها تترجم إلى أكثر من ست أو سبع لغات بمجرد ظهورها فى الأسواق ! ..

لقد توفيت أجاثا فى مطلع عام ١٩٧٦ ، عن ٨٦ عاماً بعد حياة حافلة مليئة بالعمل والإنتاج ، قدمت فيها ٨٢ كتابا ، من بينها ست قصص غرامية وقعتها باسم « مارى وست سكوت » ، و١٧ مسرحية ، وتسعة مجلدات امتلأت بالقصص القصيرة المثيرة ، وأخيراً كتابها الشهير :

« تعالَ .. احكِ لى كيف تعيش » ، وهو الذى روت فيه تجربتها مع زوجها الثانى عالم الآثار الإنجليزى .. وقد بلغ عدد النسخ التى تم طبعها من كل مؤلفاتها باللغة الإنجليزية وحدها ، أكثر من ٣٠٠ مليون نسخة !.

ولدت أجاثا كريستى A.christie فى أكتوبر من عام ١٨٩٠ ، فى بلدة « توركاى » بجنوب إنجلترا ، فى عهد الملكة « فيكتوريا» من أب إنجليزى وأم أمريكية ..

وقد كان الإنجليز فى هذا العهد الفيكتورى ، وما سبقه وما تلاه بفترة ليست وجيزة ، ينظرون إلى القلم النسائى نظرة امتعاض وازدراء متوازيين ، مما دفع بعض الكاتبات أو الروائيات إلى انتحال أسماء رجال ، يوقعن بها كتاباتهن المختلفة ! ..

ولم تقتصر مهمة الأم الأمريكية على تربية ابنتها وتنشئتها ، فقد حولت بيتها إلى مدرسة ، وكانت هى المعلمة ، وكانت أجاثا وأختها هما التلميذتين الوحيدتين فيها .. وتعلمت أجاثا القراءة قبل أن تبلغ العام الرابع من عمرها ! .

وعشقت الطفلة الموسيقى ؛ ولكنها سرعان ما تحولت عنها إلى الأدب عندما اشتد عودها ، وراحت تقرأ وتقرأ .. وكانت أحب الكتب إليها ، هى تلك التى كانت تقدمها لها أمها من مؤلفات تشارلز ديكنز ، وجين أو ستين ، وآرثركونان دويل ..

وقد قالت تصف هذه الفترة من حياتها : « لقد عشت شباباً خاملاً .. لم يكن أمامى الكثير لأعمله ، وكنت أقضى معظم وقتى فى التنزه وسط حدائق توركاى » .

وقد يكون هذا الشعور بالفراغ ، وهذه القراءات المتنوعة ، هى أحد الدوافع التى زجت بها فى عالم الكتابة .. إلا أن أجاثا تذكر واقعة قديمة ، كان لها أثر كبير على عشقها للكتابة ..

ففى إحدى الليالى الباردة جداً ، لم تنج الطفلة الصغيرة - أجاثا - من البرد فأصيبت به ؛ مما اضطرها إلى ملازمة أمها فى غرفتها تحامياً منه .. وفى تلك الغرفة طلبت منها أمها أن تكتب قصة لتسلى نفسها ، وكان هدف الأم إبعاد شبح الخوف من البرد عن ابنتها الصغيرة .. وفعلاً كتبت الطفلة قصة ، لم يصلنا منها سوى وصفها بأنها « بسيطة » ؛ لكن أهميتها تكمن فى ذكائها تلك الجذوة التى صارت بعد ذلك مشعلاً وضاءً فى ميدان الرواية البوليسية ..

إذن فتلك القصة البسيطة كانت البشير بافتتاح حياة جديدة لأجاثا أدخلتها نادى مشاهير الأدباء فى التاريخ ..

وضياع تلك القصة ، نصاً ، يدل على أنها مزقتها ، وهذا شأن الكبار من أصحاب الكتابة ؛ لأن النتاج الأول لا بد أن يكون « ساذجاً » فإذا ما نشره صاحبه فى أى فترة من حياته ، كان رصيداً عليه لا له ..

ثم أخذت الفتاة ترتقى فى محاولاتها ، خطوة خطوة ، فهى تكتب وتنشر البعض الأقل ، وتتلف البعض الآخر وهو الأكثر ، حتى ظهرت لها أول رواية بوليسية لاقت اهتماماً لا بأس به من القُراء الإنجليز ، وذلك عام ١٩٢٠ ، أى عندما بلغت أجاثا الثلاثين من عمرها ..

ويمكن اعتبار هذه الرواية نقطة تحول فى حياة أجاثا الكتابية .. فهى قد رسخت قدمها وأوضحت الطريق أمامها لكيفية الطرح الروائى .. كما تشكل جمهور متزايد ينتظر باستمرار ما ينتجه هذا الانبثاق الجديد المعروف بـ « أجاثا كريستى » .. وأخيراً ، بروزها ككاتبة متخصصة فى الرواية البوليسية .. ومن هذه الولادة الجديدة ، انطلقت أجاثا بثقة وتؤدة متلازمتين متفاعلتين حتى سقط القلم من يدها ..

وتعتبر أجاثا قاصة بوليسية بالفطرة ، حيث أنها لم تنتحل ، فى كل رواياتها ، لشخوصها الفلسفة ولا الغوص الفكرى أو العمق الأدبى ، وإنما تجد للخيال أجواءه الرحبة حيث تلتقى بالحلقات الجاسوسية الرهيبة ، وبالعصابات المتمرسة فى الجريمة .. وهناك يزكم المخدر أنفاسك ، وتلاحظ الإغراء والتنويم المغناطيسى ، والسرقة الماهرة .. فى حين تلتقى بين الفينة والفينة برجال الخير ، وتقف أمام الهمم الجبارة التواقة إلى شيوع الفضيلة .. وعلى أية حال فإنك تنتقل فى أية رواية شئت من رواياتها بين الغرائز البشرية المتباينة المعروفة لكل ذى لب بصير ..

ولا ريب أن هذه الموهبة الفذة هى التى ربعت أجاثا على عرش الرواية البوليسية ، وهى التى دعت زعماء الإنجليز أمثال « كليمنت اتلى » و « أنتونى ايدن » للإعراب عن إعجابهم بها ..

وكانت فى كل قصصها البوليسية تختار لها بطلاً واحداً ، يحل لغز الجريمة ، وهو المخبر السرى « هركيول بوارو » ..

وهى فى هذه القصص ، تبتعد عن العنف بمعناه الحقيقى ، والسم الذى تستخدمه ليس أكثر من دعابة مضحكة ، كما أن دم ضحاياها لا يترك أثراً فى المخيلة .. وهى دائماً ما تعتمد على التفكير الذهنى ، واستقراء الأحداث ،

واستتباع الأدلة ، الواحد تلو الآخر ، والشك في كل أشخاص الرواية .. وإذا أراد عشاق كتابات أجاثا أن يختاروا واحدة من أفضل قصصها ، فلن يجدوا أفضل من رائعتها « مقتل روجر أكرويد » التى كتبتها عام ١٩٢٦ ، والتى تعتبر من أبرع ما كُتب حول التحقيقات البوليسية ، ومازالت تجد بعد مرور أكثر من ٦٥ عامًا على كتابتها قراءً مشدوهين ، يقفون مذهولين أمام فك رموزها وحيلها الساحرة ..

أما مسرحيتها الرائعة « مصيدة الفئران » والتى كتبتها عام ١٩٥١ ، فقد سجلت رقمًا قياسيًا في طول المدة التى استمر عرضها خلالها .. حيث أنها ظلت تعرض منذ حفلة العرض الأول عام ١٩٥٢ ، وحتى يوم وفاة أجاثا كريستى ، للمرة الـ (٩٦١١) .. وفى تلك الليلة ، تلقت إدارة المسرح نبأ وفاة صاحبة المسرحية ، فأُطفئت الأضواء حدادًا عليها .. وقد أهدت أجاثا دخل هذه المسرحية لحفيدها الصغير « ماثيو بريتشارد » وكان يومها في عامه الثامن وقد بلغت قيمة هذه الهدية أكثر من ثلاثة ملايين دولار ..

أما ثروتها هى فقد قدرت بأكثر من ٢٠ مليون دولار ؟ ..

ومازالت « مصيدة الفئران » تعرض بنجاح حتى الآن . برغم أنها ليست أفضل ما كتبت يد أجاثا ..

إن هذه المكانة العالية التى حققتها هذه الكاتبة القديرة ، قد أتت من هذا العالم الذى نسجته بقلمها ، وهو عالم « الرواية البوليسية » .. أما عندما نأخذها في الميدان الأشمل وهو « الأدب » عند ذلك لا توضع أجاثا في مصاف الشهيرات في الأدب العالمى ؛ لأنهن أديبات عالجن الأدب معالجة فكرية ، وخضن ميادين الفلسفة والاجتماع بقلم نفّاذ ، أمثال : « چين أوستين » و« چورچ صاند » و« چورچ إليوت » و« كوليت » و« فرانسواز ساجان » و« سيمون دى بوفوار » وغيرهن ..

أما أجاثا كريستى ، فهى قاصة بوليسية ، وليس لهذا اللون الروائى إلى الآن نصيب يُذكر لدى نقاد الأدب ، وهو ما يزال رهينًا بالرواج الشعبى وحسب .

وحين تحتل الرواية البوليسية مقعدًا فى النقد الأدبى ، ستحتل السيدة كريستى موقعًا أروع ، فتكون رائدة هذا الميدان وصاحبة القدح المعلى فيه ..

وقد تزوجت أجاثا مرتين ، خلال عمرها المديد .. كانت زيجتها الأولى أثناء الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ . عندما تطوعت للعمل كممرضة فى إحدى المستشفيات الذى كانت تسهر فيه على راحة الجرحى .. وهناك التقت بالكولونيل « أرشيبولد كريستى » فتزوجها ، وظلت تحمل اسمه طيلة حياتها ، وحتى بعد زواجها الثانى ، فقد كان اسمها الحقيقى كما ذكرنا قبلاً « أجاثا ميلر » .. وانهار هذا الزواج بعد مدة قصيرة من بدئه .. وإلى هذا الفشل فى تلك الزيجة يعزو البعض سبب اختفاء أجاثا أمدًا طويلاً توارت فيه عامًا ، حتى عُثر عليها فى أحد الفنادق المجهولة مستعيرة اسمًا غير إسمها ! وفى ذلك الحين راحت الصحف تعلق على هذا الاختفاء بأنه من وسائل الإعلام لانتشار رواياتها .. إلا أنها كانت حزينة بالفعل ، ثم إنها كانت تتمتع بشهرة وقتها ، بدليل قلق قرائها عليها ، وبحثهم عنها ..

أما زيجتها الثانية ، فكانت من السير « ماكس مالوان » ، أحد أئمة الحفريات الأثرية البارزين والعالم المتخصص فى الآثار الشرقية بجامعة لندن .. وكان يصغر أجاثا بأكثر من ستة عشر عامًا .. وكانت قد التقت به أثناء إحدى رحلاتها إلى الشرق الأوسط .. وقد تشربت الكاتبة عنه حب الحفريات ، وشغفت بالآثار القديمة ، حتى أصبحت هوايتها الأثيرة لديها ، والتى تقضى خلالها أوقات ما بعد الانكباب على الكتابة ..

وقد قالت تحدث أصدقاءها عن مزايا زواجها الثاني : « إن أهم ميزة فى الزواج من عالم الآثار ، هى هذا الإحساس الذى كنت أشعر به : فقد كان إهتمامه بى يزداد كلما تقدمت بى السن ! » ..

وطبيعى أن يكون زوجها - بحكم عمله - كثير السفر إلى الشرق الأوسط للقيام بحفريات واكتشافات خاصة بآثار قدماء المصريين والأشوريين والبابليين وغيرهم وغالبًا ما كان يصطحبها معه فى جولاته تلك .. وقد زارت كلاً من العراق وسوريا ومصر ..

وبعد الحرب العالمية الثانية عُين زوجها هذا مستشارًا للشئون العربية فى الحكومة البريطانية .. وحتى عام ١٩٧٠ ، كان يعمل مراسلاً متجولاً لأحد مجامع اللغة العربية .. وعندما زارت أجاثا مصر عام ١٩٣٠ ، توجهت مع زوجها إلى الأقصر ، فى بعثة أثرية موفدة إلى مصر من متحف المتروبوليتان الأمريكى .. وهناك عثرت تلك البعثة على ألواح طينية دُونت عليها خطابات مصرية من عهد الأسرة الفرعونية الحادية عشرة تعود إلى عام (٢٠٠٠) ق . م ، وهذه الخطابات تتضمن جرائم وقعت فى عائلة مصرية كانت تعيش فى (طيبة) فى ذلك الحين ، وقد وجدت أجاثا فى ضالتها هذه مادة غزيرة لقصة تاريخية مثيرة ، ورائعة من روائعها وهى قصة « الموت يأتى فى النهاية » ..

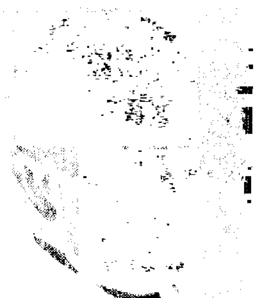
وتمتاز هذه القصة عن سابقاتها بالمفاجآت المنهالة سراعًا وبالحبك المتين وصفًا وحوارًا ..

حتى كأنها تنقل القارئ عبر ألفى سنة قبل الميلاد ليرى تلك الأسرة تجوس ديارًا وتحكم بلادًا .. يُضاف إلى ذلك طابع الغرام الهادئ الدافئ فيها ..

كما أوحت لها هذه الزيارة الأثرية رائعة أخرى هى « جريمة على ضفاف النيل » .. وقد كانت أجاثا كريستى تحتفظ دائمًا بنشاط عجيب ، وشباب متواصل يسرى فى أوصالها ، فبعدما احتفلت بعيد ميلادها الثمانين - عام ١٩٧٠ - نراها تقدم هدية لقرائها ، وهى رواية جديدة بعنوان « مسافر إلى فرانكفورت » والتى استهوت قرائها الإنجليز ! .. وفى هذه الرواية أظهرت حوادث اختطاف الطائرات ، تلك الحوادث التى اشتهرت فى تلك الفترة ، مما يعكس وعى أجاثا كريستى بما يحدث حولها - برغم تقدم العمر بها - ومواكبتها له ، وتضمين ذلك فى كتاباتها .. حتى لا يظن أحد أن هذه العجوز العتيقة العمر ذات فكر أو تقاليد بالية ..

وبعد وفاة هذه الكاتبة العظيمة فى عام ١٢ يناير عام ١٩٧٦ ، إثر مرض ألم بها شهرين ثقيلين ، خلفها كُتاب ينهجون نهجها البوليسى ذاك ؛ إلا أنهم يفتقدون جميعًا أصالتها ، إذ تبقى وحدها « سيدة الجريمة » دون منازع .





أرنولد توينبى

(١٨٨٩ - ١٩٧٥)

مؤرخ القرن العشرين

قالوا عنه : « لقد كان أفلاطون القـرن العشرين » فهـو الذى أعادنا إلى المدينة الفـاضلة ، أو الأرض المثـاليـة Utopia ، عندمـا دعـا إلى قـيام حكومـة عالميـة ..

وقـالوا عنه أيضًا : « إنـه أينشـتين الأدب » ، فـهـو الذى وضـع « دراسـة التـاريخ » Study of History الذى صـدر فى عشـر مـجلدات فى أعـوام ١٩٣٤ و١٩٣٩ و١٩٥٤ ..

فقد نقل إلينا على صفحاته وبين سطوره صورًا للحياة منذ أن كانت هناك حياة ، ثم راح يطوف بنا وينقلنا إلى الحضارات وأصولها ، ويصف لنا بُعد هذه العـوامل المؤثرة فى فكر المؤرخين .. لقـد كـانت « دراسـة التـاريخ » هذه رحلة ممتعة مليئة بالفكر والتأمل والعمق .. ولعلها كانت أطول وأعظم رحلة فى تاريخ التاريخ ..

إنه أرنولد توينبى A . Toynbee المؤرخ الفيلسوف العالم الذى كتب التاريخ كما لم يكتبه أحد من قبله ، وربما من بعده أيضًا .. الرجل الذى عاش حياته كلها فى قلق على البشرية وما ينتظرها من ويلات .. الرجل الذى وقف يدافع عن الحق فى شـجـاعة ، فكان يقـول كلمـتـه ويمضى فى طريقـه دون أن ينظر مـرة

واحدة وراءه ، ودون أن يبالى بالحملات التى كثيراً ما تعرض لها بسبب تمسكه بالحق ودفاعه عن المظلوم ..

ولد توينبى فى لندن عام ١٨٨٩ وهو ينتمى إلى أسرة ارستقراطية ، فقد كان جده لأبيه جراحاً مشهوراً ، وكان عمه أرنولد ، الذى حمل اسمه ، من كبار المؤرخين الاقتصاديين ، كما كان مصلحاً اجتماعياً .. ولو أن أبويه كانا أقل حظاً .. رغم ما حصلا عليه من علم يؤهلهما لشغل مناصب مرموقة فى الحياة العامة .. ولعلهما وجدا العزاء فيما حققه ابنهما توينبى من نجاح .. فقد تلقى علومه فى كلية « ونشستر » و« باليول » بأكسفورد ، حيث عمل مدرساً للتاريخ من عام ١٩١٢ حتى عام ١٩١٥ ، ثم أستاذاً للآداب واللغة اليونانية والتاريخ فى جامعة لندن ، ثم أستاذاً باحثاً للتاريخ الدولى بالمعهد الملكى للشئون الدولية ، وأستعانت به الحكومة البريطانية مرتين خلال الحربين الأولى والثانية ، عندما أختير عضواً فى الوفد البريطانى لمؤتمر السلام فى باريس خلال عامى ١٩١٩ و١٩٤٥ .. وأرنولد توينبى ، هذا المؤرخ الكبير عرف الخوف فى طفولته ، وعرف القلق .. وقد حكى لنا جانباً من هذه المخاوف التى كانت تنتابه فى كتابه « تجاربى » ، فقال : « كانت بداية الفصل الدراسى بالنسبة لى أشبه ما يكون بموعد تنفيذ حكم الإعدام فى سجين ينتظر الموت ! وكنت كلما أحسست باقتراب هذه اللحظة ، تضاعف عذابى حتى بلغ الذروة .. إن هذا الشعور لم يكن مقصوراً على العام الأول لدخولى المدرسة .. ولكنه ظل يلازمنى طوال السنوات الست لدراستى قبل بدء مرحلة الدراسة الثانوية .. فقد كان ينتابنى فى كل مرة تنتهى فيها العطلة القصيرة التى كنت أقضيها وسط والدى ثلاث مرات فى العام ..

كنت أقف دائماً موقف المدافع عن النفس كلما بدأت أستعد للعودة إلى المدرسة الداخلية ، ولم يفارقنى هذا الإحساس بالخوف ، إلا عندما أصبحت

طالبًا فى الكلية الإنجليزية للآثار فى أثينا وكنت يومها قد جاوزت العام الثانى والعشرين من عمرى .. ففى اليونان فقط تعلمت كيف أقف وحدى على قدمى ، وكيف أعتمد على نفسى .. تعلمت كيف أتخلص من مخاوفى .. وجدت فى ريفها وفى آثارها القديمة تجربة العمر التى كنت أتطلع إليها » ..

وبرغم ذلك ، كان توينبى مدينًا لهذا القلق بنجاحه ، فقد دفعه إلى إنجاز واجباته المدرسية قبل الموعد المحدد للإنتهاء منها ، وقبل زملائه بوقت طويل .. ومن هنا كان يجد متسعًا من الوقت يبحث فيه عن نفسه وعن كل ما يثير إهتمامه فيما يرى من حوله ..

وقد كتب يقول : « كنت أقضى هذا الوقت فى قراءة كل ما يعجبنى ، وما أختاره أنا لنفسى بعيداً عن المقررات الدراسية .. وكانت كتب التاريخ هى أكثر الكتب التى أجد نفسى مشدوداً إليها شداً ، فكنت أمضى معها كل ساعات النهار ، وجانبًا طويلاً من الليل .. وكانوا يسألوننى ، لماذا تضيع كل عمرك مع التاريخ ؟ .. وكنت أجيبهم : للمتعة .. وقد كنت أمينًا ومخلصاً فى إجابتى » .. ولكن لماذا اختار توينبى التاريخ .. والتاريخ بالذات .. ولا شىء غير التاريخ ؟ ! يقول المؤرخ الكبير : « إننى أعرف الإجابة على هذا السؤال تمام المعرفة .. فقد أحببت التاريخ ، وأصبحت مؤرخًا لأن أمى كانت مؤرخة » ..

ويذكر توينبى أنه فى سنوات عمره الأولى طلب والده من أمه الاستغناء عن مربية ابنهما – توينبى – لأن ميزانيتهما لم تعد تحتمل دفع مرتبها .. ولكن أمه طلبت الاحتفاظ بالمربية لمدة سنة واحدة أخرى ، وقالت لوالده : إنها سوف تشرع فى وضع كتاب طالما تاقت لإصداره ، وبذلك تستطيع أن تدفع مرتب المربية من دخل الكتاب بعد طباعته .. ووافق الوالد .

ويقول توينبى : « إننى مازلت أذكر حماس أمى وهى تتسلم بروفات كتابها الجديد « قصص من التاريخ الاسكتلندى » Tales from the Scottish

History لمراجعتها وتصحيحها قبل إرسالها إلى المطبعة .. وصدر الكتاب ولم يزد أجرها فى ذلك الوقت عن عشرين جنيها ، وانتهت السنة ، وقبضت مربيتى أجرها ، وحزمت حقائبها ورحلت .. وبدأت أمى تتولى مهمة رعايتى ، فكانت تحملنى إلى فراشى كل ليلة ، وتفعل كل ما فى وسعها لإسعادى بما ترويه من قصص قبل أن أغمض عينى لأنام .. ماذا كانت تقص علىّ أمى من قصص الأطفال ساعة النوم ؟ .. لقد مضت تحكى تاريخ إنجلترا على حلقات .. كل ليلة حلقة جديدة ، منذ كان لإنجلترا تاريخ حتى يومنا فى ذلك الوقت ..

وأحببت التاريخ الذى أرضعته لى أمى .. كانت هى وحدها التى ألهمتنى .. كانت أمى تعشق حقائق التاريخ .. الحقائق الثابتة التى عشقتها بدورى ، وهى رصيد المؤرخ فى صناعته .. وبغيرها لا يستطيع أن يصبح مؤرخًا .. ولكننى لم أكن أحب هذه الحقائق ، لمجرد أنها حقائق فحسب ؛ بل كنت أحبها لأنها كانت بالنسبة لى مفاتيح لأبواب تخفى وراءها أسرار الطبيعة ، وتكشف معنى الكون الغامض من حولنا .. هذا الكون الذى يصحو فيه شعور كل إنسان .. إننا نحاول دائمًا أن نكتشف هذا الكون .. نحاول أن نعرف مكاننا فيه ، ونمضى فى محاولاتنا بلا توقف رغم ادراكنا بأن كل ما نبذله لن يقودنا إلى أكثر من مجرد بصيص خافت من الضوء ! .. غير أن هذا لم يمنعنا يومًا من السعى نحو مزيد من النور » ..

لقد درس توينبى حياة الإنسان .. درس الطبيعة ، درس علم النبات ، وعلم طبقات الأرض ، ودرس كل ما يتصل بالحياة وأسرارها .. وكان فى دراساته كلها يبحث عن شىء واحد .. عن حقائق التاريخ .. تلك التى أعطاها كل فكره وعمـــره ..

يقول توينبى : « إن إهتمامى بدراسة حياة الإنسان مبعثه ذلك الإحساس الذى كنت أجده وأنا أبحث وأنقب فى بطون كتب التاريخ .. فقد كانت هذه

الكتب هى النافذة الوحيدة التى أستطيع أن أطل منها على الكون الواسع من حولى » .

لقـد انتهت حيـاة هـذا المؤرخ الكبيـر فى الثانى والعشرين من أكتوبر عـام ١٩٧٥ ، عن ٨٦ عـامًا حـافلة مليئـة ، جعلت منه واحدًا من أعظم الرجال الذين أمسكو بالقلم ليسجلوا التاريخ ويفلسفوه .

وقد استطاع بفكره وعلمه أن يحل الكثير من أعقد المشـاكل البشرية ، واستطاع بشخصيته أن يعلمنا كيف يكون تواضع العلماء ، وكيف تكون بساطة شخصياتهم ، واستطاع بحديثه أن يُضفى على شخصيته سحرًا تلمسه فى كل كلمة تخرج من شفتيه ، وفى كل نظرة تراها فى عينيه العجوزتين اللتين سجل بهما فى طوافه حول العالم أروع قصص الحياة فى واحد من كتبه العديدة التى جمع فيها خواطره وتأملاته ودراساته ..

وقــد حفلت سنـوات توينبى الأخيــرة من حيـاته بالإنتـاج ، فقـدم لنـا « شخصيـات عرفتهـا » فى عـام ١٩٦٧ ، و« إهتمـام الإنسـان بالموت » فى عـام ١٩٦٨ .. و« نصف العـالم » فى عـام ١٩٧٣ ، وقد نقل إلينا فيه التـاريخ الثقـافى للصين واليابان .. وغير ذلك من الكتب التى امتلأت بفلسفته ، وتوغل فيها إلى أعماق نفسه وأعماق التاريخ ..

ولم يبخل توينبى بفكره ورأيه على الصحف ، فقد كان يدرك أهمية الدور الذى تقوم به الصحافة فى عالم اليوم ؛ ولكنه كان يتخير الصحيفة التى يخصها لنشـر أفكاره على الناس .. فكتب لصحيـفـة « الأوبزرفـر » ، وهى من أكثـر الصحف البريطانية اتزانًا وحرصًا فى بحثها عن الحقيقة ..

وقد ظل توينبى يكتب للأوبزرفر لمدة عشرين عامًا متصلة .. ولم يكن يتعب أو يمل حتى عندما تقدم به العمر وأثقلته الشيخوخة بمتاعبها .. وكان يأتى إلى

دار الصحيفة ، ويقدم لها ما سجله بقلمه عن الحضارات القديمة وعن إنسان ما قبل الميلاد .. وكيف كان يعيش ويكافح ويتعذب ويقاتل من أجل البقاء .. وقد تزوج توينبى مرتين .. المرة الأولى من « روزاليندا » ابنة أستاذه جيلبرت موراى ، وهى التى أنجبت له ولدين .. ودام هذا الزواج السعيد - كما وصفه هو - لأكثر من ثلاثة وثلاثين عامًا .. وكان يتمنى لو أنه عاش مع زوجته وأم ولديه رحلة العمر كلها حتى نهايتها .. ولكن أمنيته لم تتحقق .. فقد انفصل عن زوجته بالطلاق فى عام ١٩٤٦ ..

وأحس توينبى بالوحدة ، فراح يبحث عن زوجة أخرى تشاركه حياته ، وكان يومها فى السابعة والخمسين من عمره ، ووجدها .. وكانت ابنة قسيس طيب ، تدعى فيرونكيان .. وقد شاركته حياته وعمله ، وكانت عكازه الذى يستند إليه فى شيخوخته ..

وكان توينبى ينظر إلى استخدامات الإنسان للتكنولوچيا المتقدمة نظرة بها الكثير من الشك .. كان لا يستريح مثلاً لركوب الطائرات النفاثة ، ويفضل عليها الطائرات البطيئة التى تطير بالمحركات المروحية ، وبشرط أن يكون لها نوافذ كبيرة يستطيع أن ينفذ ببصره من وراء زجاجها ليرى ما تخفيه عنه السحب ..

وقد كان يشعر بارتياح عندما يحس بقدميه تدبان على الأرض ، وكان يرى فى آثار الإبل فوق رمال الصحراء صورة تذكره باستمرارية الحياة .. كان يقول إن آثار حوافر عنزة فوق تل ، أجمل من أية صورة يمكن أن يرى الإنسان مثلها وراء السحب فى السماء .

ومن خلال دراسته للتاريخ ، وصداقته له ، آمن بمبدأ عدم دوام الحضارات .. وربما كانت رحلاته إلى الشرق الأدنى هى التى أعطته ذلك الشعور القوى .. فقد كتب يقول فى إحدى وقفاته وتأملاته : « هنا ترقد

الحضارات الواحدة فوق الأخرى .. القلاع ، المعابد ، الآثار .. كلها فى بقعة واحدة .. حضارات فارسية ويونانية ورومانية وبيزنطية وفينيقية .. لماذا ذابت هذه النظم السياسية الواحد بعد الآخر ؟ ! » وكان يقف فى حزن وهو يتأمل تلك الأطلال من حوله .. تماماً كما كان يجلس ويسرح بفكره عندما يخلو إلى نفسه ، فى أصدقائه وزملائه الذين ضحوا بأرواحهم فى الحرب العالمية الأولى وماتوا فى ساحة القتال .. وكثيراً ما أخرج منديله من جيبه ليمسح دمعة حاول أن يحبسها حزناً عليهم ..

لقد بقى شبح هؤلاء الرفاق يطارده طوال حياته ، وكان يقول : « لقد كان من الممكن أن أموت مثلهم ، لولا هذا المرض اللعين الذى أصابنى – كان مريضاً بالدوسنتاريا – وجعلنى غير لائق طبياً للخدمة العسكرية ! » .

وكان يشعر بغرابة كلما تقدم به العمر ، ورأى سفينة الحياة تقاوم الموج والغرق .

لقد مات توينبى .. ولكن نبوءاته سوف تعيش وتتحقق من بعده .. ولعل أعظم هذه النبوءات التى هزت أعداء العرب ، هى تلك التى قال فيها : « إن إسرائيل لن تلبث أن تزول من تلقاء نفسها وسط هذا البحر من العرب الذى تحيط أمواجه بكل شواطئها .. ذلك إن إسرائيل قد قامت على أساس فاسد غير سليم ، ولا يمكن أن تستمر على مدى التاريخ » ..

لقد دخل توينبى التاريخ الذى أحبه ، وأفنى عمره فى دراسته .. تلك الدراسة التى بدأت مع طفولته ، ولم تنته أبداً حتى آخر يوم فى حياته .. فقد ذهب وهو مازال يقرأ ويدرس ويتعلم .. وهو الأستاذ الذى علم أجيالاً .





هـ . ج . ويلز

(١٨٦٦-١٩٤٦)

فيلسوف الصحافة

إنه الكاتب والقصّاص والصحفى والعالم الإنجليزى الشهير : هربرت جورج ويلز H. G. Wells ، الذى توفى فى يوم ١٣ أغسطس عام ١٩٤٦ ؛ ولكن قلما نجد كاتباً واحداً من الكتّاب والأدباء المعاصرين يتحدث عن هذا الكاتب الكبير كشخصية تمتد إلى الماضى ، فقد عاش ويلز حاضرنا ومستقبلنا ، ووصف رحلته إلى المستقبل البعيد فى أول كتاب له بعنوان « آلة الزمن » The Time Machine ، عام ١٨٩٥ .. وتحدث فى كتاب آخر اسمه « أول رجل على القمر » The Firstman in the Moon ، قبل أن تبدأ الصواريخ فى محاولة بلوغ القمر بنصف قرن من الزمان أو يزيد .. فهو إذن الرجل الذى تنبأ بالمستقبل ، وصدقت نبوءته ..

وكان آخر ما كتبه قبل وفاته بأيام مقالاً عن أخطار القنبلة الذرية .

ولد ويلز فى مدينة « بروملى Bromley » ، بمقاطعة كِنت فى إنجلترا فى ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٦ ، وكان أبوه جوزيف ويلز يمتلك متجراً صغيراً لبيع الأوانى والأطباق .. ولمّا وجد الأب أن دخله من هذا المتجر لا يكفى نفقات معيشته هو وزوجته وابنه ، احترف لعبة الكريكيت ، وراح يستعين بدخله من الدروس التى يعطيها فى هذه الرياضة على مواجهة أعباء الحياة .. ثم اضطر الأب فى النهاية إلى البحث عن عمل لزوجته ، فعملت الزوجة خادمة فى منزل أحد الأثرياء ! .

ووسط هذه الأسرة الصغيرة المكافحة ، نشأ الصبى ويلز نشأة فقيرة ، فعرف الجوع وذاق مرارة الحرمان .. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره ، أسرع والده يبحث له عن عمل هو الآخر ليساهم بدوره فى نفقات تربيته وتعليمه ، الذى لم يكن قد تلقى منه سوى القدر الضئيل عن طريق الكتب التى كان يشتريها بالقروش التى يوفرها من مصروفه ..

وعثر الأب أخيراً على عمل لابنه الصغير فى متجر لبيع الأقمشة بمدينة وندسور .. ولكن لم تكد تمضى بضعة أيام ، حتى أسرع الصبى هارباً من المتجر بعد أن قبض أجره الأسبوعى ، وعاد إلى بيته ليقول لأبيه : إنه لا يحتمل الاستمرار فى هذا العمل الذى لا يروقه ! .. والتحق ويلز بعد ذلك بعدة وظائف صغيرة أخرى ، فعمل مساعداً لأحد الكيميائيين فى معمله ، ثم مساعداً لبائع أقمشة مرة أخرى ، وأخيراً حاجباً فى مدرسة ليتعلم قواعد اللغة الإنجليزية ..

وفى هذه المدرسة .. ولأول مرة أتيحت الفرصة للصبى الصغير للالتقاء بالكتب وجهاً لوجه .. فراح يقرأ وينهل من العلم فى أوقات فراغه حتى جاء موعد الامتحان ، وكانت المفاجأة عندما شاهد التلاميذ الحاجب الصغير يقف بينهم ويتقدم هو الآخر للامتحان ..

ونجح ويلز بتفوق وحصل على منحة دراسية لدراسة علم الأحياء بكلية العلوم بلندن .. وهناك تتلمذ على يد « توماس هنرى هكسلى » أستاذ العلوم الكبير ، وصاحب العالم داروين ، وقد كتب ويلز فيما بعد يصف لقائه بالعالم البريطانى الكبير يقول : « عرفت بعد لقائى بهكسلى أن أنبغ الأدباء هم العلماء » .. فقد كان هكسلى أديباً فى فلسفته وفى علمه وفى نظرته إلى الحياة .. حتى فى شرحه للنظريات العلمية كان الطابع الأدبى يغلب عليه ، وقدّم للعالم المفكر ولدين أحدهما : أديب هو « ألدوس هكسلى » ، و الآخر عالم هو « چوليان هكسلى » .

وتخرج ويلز فى جامعة لندن عام ١٨٨٨ ، واشتغل بالتدريس ؛ ولكن مرتبه الضئيل لم يكن يكفيه ، فبقيت الأزمة المالية تلازمه ثم ما لبثت أن تضاعفت بسبب اعتلال صحته من ناحية وبسبب زواجه من ابنة عمه « إيزابيل مارى ويلز » من ناحية أخرى ، فقد فشل زواجه هذا وانتهى بالطلاق بعد أربع سنوات .

وكان من الممكن أن يُضرب ويلز عن الزواج بعد فشل زواجه الأول ؛ ولكن اعتلال صحته وشعوره بالحاجة إلى شخص يعنى به ويسهر على راحته دفعه إلى أن يجرب حظه مرة أخرى ، فالتقى بفتاة تدعى « آمى كاترين روبنز » ، وبعد صداقة قصيرة ، جلس يومًا يعرض عليها الزواج ويقول لها : « لن تكونى لى زوجة فحسب ؛ بل ستكونين ممرضة ! » .

واحتفل ويلز بزواجه الثانى ، وتعلمت آمى فن التمريض فى بيت الزوجية .. ولكن أحدًا لم يعرف حتى الآن طبيعة المرض الذى كان يشكو منه فى بداية حياته ..

واختلف الرواة ، فقال البعض : « لقد كان يتحسس أحيانًا جنبه الأيمن .. ويُحتمل أن يكون قد عانى التهابًا بالزائدة الدودية لفترة من الوقت ، ثم شُفى منه بلا جراحة » ..

ولكن الذين عرفوا ويلز عن قرب يؤكدون أنه كان مصابًا بعُسر الهضم ..

وكان ويلز يعمل مدرسًا للعلوم فى ذلك الوقت ، وكان بين تلاميذه شاب صغير نحيل يُدعى « ألفريد هارمسورث » الذى أصبح فيما بعد بـ « لورد نورثكليف » ، ملك الصحافة فى بريطانيا ، وصاحب أكبر دار للنشر تصدر عنها عدة صحف ومجلات أسبوعية ، أما أول صحيفة أصدرها ألفريد فكانت فى المدرسة وهو بعد مازال طالبًا .. وقد قال عنه ويلز عندما اشتغل هو بالصحافة

فى عام ١٨٩٥ : « لقد علمنى ألفريد الصغير الفن الصحفى » .. وفى هذا العام وضع ويلز أول كتاب له بعنوان : « آلة الزمن » ، وقد وصف فيه رحلته إلى المستقبل البعيد .. المستقبل الذى نعيش فيه اليوم ، والذى سيعيش فيه أولادنا من بعدنا ..

وقد حقق هذا الكتاب نجاحًا هائلاً ، ودفعه هذا النجاح إلى كتابة سلسلة من المؤلفات التى جعلت العالم كله يعترف به كاتبًا أصيلاً فريدًا فى نوعه .. كاتبا يتمتع بعبقرية فذة وقدرة عجيبة على التخيل والابتكار والإقناع.. وفى مقدمة الكتب التى رفعته إلى القمة كتاب « الرجل صانع المعجزات » ، و« الرجل الخفى » ، و« قصص الفضاء والزمن » وغيرها كثير .. وقد أثبت فيهما مقدرته الفذة على الخلق والإبتكار ، والاستفادة من العلوم فى أدبه الذى أصبح غذاءً دسمًا للملايين من قراء كتبه ..

وكان ويلز قد شفى تمامًا من مرضه ، ولعله المال الذى تدفق عليه من كتبه ، ومكنّه أخيرًا من علاج أمعائه .. وتخلت آمى عن وظيفتها الأولى كممرضة لتعيش له زوجة وفيّة ؛ ولكن دون أن تترك أى أثر فى كتاباته ، بعكس أمه التى تركت عملها كخادمة ووصيفة ومديرة بيت ، بصماتها فى قصصه ومؤلفاته ، فقد تأثر ويلز بحياة أفراد الطبقة الارستقراطية الذين كانت الفتاة التى تعمل والدته لديها تنتمى إليهم ، حيث كان يلقاها عندما يذهب إلى أمه ويمضى أوقات فراغه بجانبها ، فجاء معظم أبطال قصصه ومؤلفاته من بينهم ، أمثال الطيارين والعلماء ومديرى الشركات ونجوم المجتمع ..

ولكنه مالبث أن تحول بعد ذلك فى كتاباته ، إلى وصف طفولته المعذبة ، وإلى فقره وحرمانه فى أيام صباه ، فكتب عن الفقراء وحياتهم ، وأصبح المتحدث بلسان الذين يتعذبون كما تعذب هو ، والذين لا يستطيعون الإفصاح عن آلامهم ..

واهتم ويلز بالإنسان والمجتمع ، وأدى إهتمامه هذا إلى التركيز على واقع الحياة ، فرسم بقلمه وأسلوبه الرائع الصورة الكئيبة للمجتمع المحروم ، وعرض آلام الطبقة الفقيرة والكادحة فى كتابه : « الحب والسيد لويس هام » عام ١٩٠٠ ، ثم قصته المشهورة « كيبس Kipps » ، عام ١٩٠٥ ، و« تاريخ السيد بولى » عام ١٩١٠ ، وفى هذه المؤلفات الثلاثة حقق ويلز أسمى درجات النجاح ، إذ كشف الكاتب الكبير عن عطفه على الفقراء والمعوزين .. تحدث عن آلامهم وأحلامهم .. عن حساسيتهم المرهفة وشعورهم الرقيق .. عن سذاجتهم وطيب قلبهم .. وعن كفاحهم المستمر من أجل حياة أفضل .. وكان ويلز قبل ذلك ببضع سنوات قد انضم إلى الجمعية الفابية Fabian Society ، التى تأسست فى عام ١٨٨٤ ، وكانت تدعو إلى الاشتراكية ، وكانت تؤمن بأن التغيير الاجتماعى يمكن أن يتحقق تدريجياً عن طريق البرلمان .. وكان من ضمن المنضمين إلى هذه الجمعية الكاتب الشهير چورج برنارد شو ..

ولكن ويلز بعد فترة انشق على الحركة الفابية وانتقد أساليبها ، ليقدم نظريته هو فى الاشتراكية فى كتابه « دنيوات جديدة بدلاً من القديمة » الذى صدر عام ١٩٠٨ ، وكتابه « الشىء الأول والأخير » ..

وفى هذه الفترة من حياته ككاتب ومؤلف ، استطاع ويلز أن يعبر عن أهم نظرياته ومعتقداته التى شغلت كل وقته وتفكيره لسنوات طويلة مقبلة .. فقد نادى بقيام « دولة عالمية » ، أو « دولة مثالية » ، وهى نظرية طالما استنكرتها الحركة الفابية وتوقعت لها الفشل ، وقد كان هذا من الأسباب التى دفعت ويلز إلى الخروج على الفابية وتشديد حملته عليها ، غير أنه مالبث أن اعترف هو نفسه بخطئه وفشل حملته التى وصفها بأنها كانت « عاصفة فى فنجان » ! .

وقد جاءت كتب ويلز « التوقع والانتظار » و« البشرية فى البوتقة » و« يوتوبيا حديثة » ، تعبيراً عن هذه النظرية التى آمن بها فى وقت من الأوقات ودعا إليها وتوقع حدوثها فى ثقة ..

فقد كان يقول : « لابد من قيام جمعية من الأمم الحرة السعيدة ، لا جيل من الجياع وسط خرائب حضارات محترقة » .. فقد كان يتوقع الاحتراق دائماً للحضارات القائمة حوله نتيجة لظهور هتلر والظلم الاجتماعى الذى ساد أوربا فى ذلك الوقت ..

وكان يرى خطر الحرب ويتنبأ بوقوعها ويُحذر منها ، وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ ، قال : إنها لن تكون آخر حرب ، فسوف يشهد العالم حروباً أخرى مدمرة ..

وقد تنبأ ويلز بنشوب الحرب العالمية قبل اندلاعها بسنوات طويلة ..

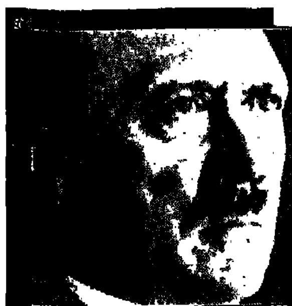
والواقع أن الحروب زعزعت إيمان ويلز بالتقدم الذى لا مفر منه لخير الإنسان ورفاهيته .. وفى الحرب العالمية الأولى ، كتب ويلز كلمة يرفع بها الروح المعنوية للشعب البريطانى ، على أسلوب تشرشل فى الحرب العالمية الثانية ، فقد قال : « إذا بدأنا نقاتل فسوف نستمر فى قتالنا طالما كان ذلك ضرورياً ، حتى لو مات أطفالنا جوعاً فى بيوتنا .. وسنستمر نحارب حتى لو استقرت كل سفننا فى قاع البحر » .. وبعد هذه الحياة تخلى التشاؤم عن ويلز ، ونظر إلى الدنيا خلال منظار أبيض ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فعاوده تشاؤمه ، وقال : « إذا قُدر لهذه الحرب أن تنتهى ، فإن أى حرب قادمة ستقضى على البشرية والحضارة من جذورها » .

وكتب ويلز عدة مؤلفات خلال السنوات التى عاشها قبل نشوب هذين الحربين ، كانت كلها تدور حول عرض مشكلات اجتماعية وثقافية فى أسلوب حماسى لايخلو من الدعابة وروح المرح والقدرة على التصوير ، فأصدر « آن فيرونيكا » و« ميكيافيلى الجديد » و« عالم الحياة » الذى اشترك فى كتابته مع چوليان هكسلى ، و« الأخوان » ، و« الرعب المقدس » ، تلك القصة التى كتبها بعد قيام الحرب العالمية الثانية بعام واحد .

وقـد عرف هذا القرن أديبين صـحفيين من أعظم أدباء العصـر ، هـما : برنارد شـو ، و هـ . ج . ويلز ، فـقـد كـان كـلاهـما يكتب فى الصـحف ويؤلف الكتب ؛ ولكن مؤلفاتهما ، هى أدب صـحـفى ممتـاز ، ولأنه ممتـاز ؛ فـقـد جـمع وحفظ فى صحيفة الكتاب .. وما من كتاب ألفه هذان الاثنان إلا وهو يعالج مشكلة بشرية أو اجتماعيـة أو اقتصادية يجب أن تعالجها الصحيفة اليومية أو الأسبوعية ..

وقد كان لويلز تأثير كبير فى تاريخ الصحافة ، وبرغم إمكاناته الأدبية ، ومواهبه العظيمة كقصّاص ، إلا أنه كان يعتبر نفسه صحفيًا فى المقام الأول ، لا أديب ولا قصّاص ، فقد أراد أن يصوّر فكرة ، وليس أن يخلق أعمالاً فنية .. فقـد قال : « إننى أرفض أن أقوم بدور فنان .. أنا صـحفى طـوال الوقت .. وما أكتبه إنما هو لساعته فحسب ، وسيموت من فوره » .. من أجل ذلك استحق أن نطلق عليه « فيلسوف الصحافة » .





هتـــــلر

(١٨٨٩ـ ١٩٤٥)

الطيب الشرير

كتب فى مذكراته ذات يوم يقول :

« لقد كانت دموعى طيِّعة .. بكيت كثيرًا .. ولكننى كنت أحرص دائمًا على أن أبكى وحدى ، بعيدًا عن عيون رجالى العسكريين .. كنت أذهب إلى حجرة مكتبى وأوصد الباب .. وعندما أتأكد أنه لم تعد هناك عين واحدة ترقبنى ، أنفجر باكيًا كما يبكى الأطفال ..

وما أكثر اللحظات التى أدمت قلبى وأسالت دموعى .. لقد بكيت عندما اندحرت قوات النازى أمام أبواب ستالينجراد .. وبكيت عندما تراجعت جيوشى أمام قوات الحلفاء فى نورماندى .. وبكيت أخيرًا عندما مات روميل ، بعد أن أحس بالهزيمة التى أحاقت برجاله .. ولكننى أحسست بنهايتى عندما علمت أن ألمانيا قد استسلمت وانتهت .. وهو إحساس لم ينتبنِ طوال حياتى ، إلا مرة واحدة ، وذلك عندما ماتت أمى » ! ..

إنه أودولف هتلر A. Hitler ، الرجل الذى تسبب فى قيام الحرب العالمية الثانية ، وما نجم عنها من ضحايا عُدوا بالملايين ، وأراد أن يحرق يهود أوربا كلهم ، وقد أحرق بالفعل بعضهم ، كما أنه دمر امبراطوريتى فرنسا وبريطانيا

واستبدلهما بالقوة الأمريكية فى الغرب ، والقوة الشيوعية الستالينية فى الشرق.

ولد هتلر عام ١٨٨٩ ، فى بلدة « برادناو » بالنمسا – فهو ، إذاً ليس ألمانى الأصل – وهى قرية صغيرة بالقرب من حدود ألمانيا ، وكان أبوه موظفاً صغيراً فى الجمرك .. وبعد أن أُحيل إلى التقاعد ذهب بالأسرة إلى مدينة « لانز » مسقط رأسه ، ثم إلى قرية « لامباخ » حيث تفرغ تماماً لأعمال الزراعة فى أرضه الصغيرة ..

وأدخل الأب ابنه الصغير – أودولف – مدرسة « لامباخ » ، إلا أنه لم يكن قط طالباً مُجداً ، ولم يُبد ميلاً إلى المواد الدراسية التى كانت تلقى عليه ، وكان يمضى أوقات فراغه فى مكتبة والده ، يطالع كتب التاريخ ، ويقرأ المجلات المصورة .. وعثر ذات يوم على مجلة فيها وصف رائع للحرب بين بروسيا وفرنسا ، فكان يساءل نفسه وهو يقرأ : وأين كان ألمان النمسا وقتئذ ؟ وهل هناك فرق بين الألمان الذين قهروا نابليون وبين ألمان النمسا ؟ .

وكان والده يعلم أن الدروس الكلاسيكية لا تهمه ، وكان يبغى أن يصنع منه موظفاً مثله .

وانتقل هتلر إلى معهد الفنون الجميلة .. وهناك اكتشف أنه يملك موهبة الرسم ، وقرر أن يصبح مصوراً أو رساماً .. ولكن والده أخرجه من المعهد ، وأعاده مرة أخرى إلى المدرسة ، فركز اهتمامه فى مادة الرسم ، وأهمل كل المواد الدراسية الأخرى ..

وتوفى أبوه فجأة ، وهو لا يزال فى الثالثة عشرة من عمره ، وأُصيب بنزلة شعبية خطيرة أدت إلى انقطاعه فى البيت عاماً كاملاً عن الدراسة .. ثم عاد مرة أخرى إلى معهد الفنون الجميلة .. وبعد عامين توفيت أمه .. ووجد نفسه فى معترك الحياة وحده ، وهو لا يزال فتى مراهقاً .. وكان عليه أن يعمل ليعيش ..

وكانت خيبته كبيرة عندما رسب فى امتحان أكاديمية الفنون فى التصوير بالزيت ! .

واتجه هتلر إلى ڤيينا ، وكله تصميم على دراسة هندسة المعمار ، فبحث عن عمل ليوفى بنفقات الدراسة ، وقضى فى ڤيينا أتعس سنوات حياته ، فقد عاش خمساً منها لم يذق خلالها طعم الراحة .. وبدأ عمله كمعاون بناء ، ثم كنقاش ، ليحصل على قوته اليومى ! .. وكان مثابراً على قراءة كل ما تقع عليه عيناه ، فاتسعت معلوماته ومعارفه ، وتبلورت آراؤه مع مرور الزمن .. وقد روّعه خلال وجوده بالنمسا البؤس الذى يسيطر على الشعب ، وانخفاض المستوى الأخلاقى وفقدان الشعور بالواجب بين العمال والصناع ، وتفسخ المجتمع بصورة بشعة ..

وفى عام ١٩٠٩ طرأ على وضعه بعض التحسن ، فقد أصبح يعمل لحسابه الخاص كرسام هندسى .. وفى أوقات فراغه كان ينكب على الدرس والمطالعة ، وخاصة دراسة الوضع السياسى فى البلاد ، وما تتركه التيارات العقائدية والفكرية من أثر على الدولة النمسوية المهددة بالانهيار والتخريب الذى تحدثه الماركسية واليهودية ..

وفى عام ١٩١٢ غادر هتلر ڤيينا إلى ميونيخ بألمانيا ، ولم يصرفه إهتمامه بالدرس عن متابعة الأحداث السياسية ، ودراسة الأوضاع الاقتصادية المتردية فى ألمانيا بصفة خاصة ، ورسخ فى ذهنه أنه لا ينقذ ألمانيا من خطر الجوع ، إلا الاستيلاء على أرض جديدة ، تنقل إليها الفائض من سكانها ، وتستفيد من مواردها الأولية وخاماتها ! .. وأن الواقعية المثالية التى يمكن لألمانيا اتباعها فى هذا المجال هى الحصول على « مجال حيوى » لها فى القارة الأوروبية ذاتها ..

والتحق هتلر بالجيش الألماني ، وشارك في الحرب العالمية الأولى ، وجُرح ، وتلقى ميداليتين على شجاعته في القتال .. غير أن هزيمة ألمانيا في هذه الحرب قد صدمته بعنف فأغضبته على الشعوب الأوربية الأخرى ..

وفي عام ١٩١٩ ، كان في الثلاثين من عمره ، وانضم إلى حزب يميني متطرف في ميونيخ ، وكان يحمل اسم « حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي » ، واختصاراً لهذا الاسم الطويل أصبح يسمى الحزب «النازي» ، وعندما نقول : النازي أيضاً فإنها تنصرف كذلك إلى شخص هتلر ..

وفي سنتين اثنتين فقط ، أصبح هتلر « الفوهرر » أي القائد الأوحد في البلاد .

وبزعامة هتلر ازداد حزب النازي قوة .. وفي نوفمبر ١٩٢٣ ، حاول أن يقوم بانقلاب ضد الحكومة ، سمي بانقلاب « حانة ميونيخ » .. وفشلت المحاولة ، وتم اعتقاله ، وحوكم بتهمة الخيانة .. ومكث في السجن عاماً تقريباً .. وفيه ألّف كتابه الشهير « كفاحي » ، والذي أفصح من خلاله عن نواياه ودعا فيه إلى خوض كفاح وطني عِرقي في سبيل الاستقرار والبقاء ، وطرح فكرة بناء امبراطورية ألمانية في أوربا تتسع على مدى تواجد المستوطنين والفلاحين الألمان ، لتبلغ أوكرانيا – بالاتحاد السوفيتي – وتكون مُطهرة من الجرثومة اليهودية .. وحتى عام ١٩٢٩ ، كان حزب النازي المعارض ما يزال صغيراً ، وحدثت أزمة الكساد الاقتصادي العالمي في عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ ، فأثارت ضيق الألمان وغضبهم على كل الأحزاب السياسية الحكومية طبعاً ، وفي وسط هذا الجو ، اكتسب الحزب مزيداً من القوة .. وفي يناير ١٩٣٣ ، وفي سن الرابعة والأربعين ، أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا ..

وبسرعة .. أقام حكماً ديكتاتورياً مستخدماً كل أجهزة الدولة فى سجن المعارضين ، واستطاع أن يصل إلى كل ما يريد بسرعة هائلة ، كما استطاع أن يحصل على التأييد الكامل للشعب الألمانى .. وأفلح فى أن يقضى على البطالة ، وأن يحقق الانتعاش الاقتصادى للبلاد ..

وأعد هتلر ألمانيا لتكون السبب فى إشعال الحرب العالمية الثانية ، وحقق أول انتصاراته الإقليمية دون قتال ، ولم تتدخل فرنسا وبريطانيا الغارقتان فى مشاكلهما الاقتصادية ، عندما خرق هتلر معاهدة فرساى وأقام جيشاً ضخماً ، أو عندما احتلت قواته إقليم الراين فى مارس ١٩٣٦ ، أو عندما ضم النمسا إلى ألمانيا فى مارس ١٩٣٨ ؛ بل إن الدولتين قد وافقتا فى سبتمبر ١٩٣٨ على أن يضم إقليم السوديت إلى ألمانيا ، والسوديت كان الجزء الحصين تماماً من تشيكوسلوفاكيا السابقة .

وانعقد ميثاق ميونيخ الشهير الذى اشترت به بريطانيا وفرنسا « السلام بأى ثمن » .. هذا الميثاق ترك تشيكوسلوفاكيا وحدها أمام هتلر فاستولى على ما تبقى منها بعد ذلك بشهور ..

وكان هتلر ، وبمنتهى الذكاء والبراعة ، يهدد بالحرب إذا لم يجب إلى مطالبه ، وكانت الدول الديمقراطية الغربية تستسلم لهذه التهديدات ..

واعتزمت بريطانيا وفرنسا حماية بولندا بأى ثمن ، وكان من المعروف أن بولندا سوف تكون الهدف التالى لجيوش هتلر ؛ ولكن هتلر أسرع ووقع ميثاق عدم اعتداء مع ستالين ديكتاتور روسيا ، ولم يكن ذلك ميثاقاً بعدم الاعتداء ، وإنما كان تحالفاً على اقتسام بولندا بينهما .. فبعد تسعة أيام هاجمت ألمانيا الحدود البولندية ، وبعد ستة عشر يوماً هاجمها السوفييت من الناحية الأخرى ! وعلى الرغم من أن بريطانيا وفرنسا قد أعلنتا الحرب على ألمانيا ، فإن بولندا قد انهارت تماماً ..

وكانت حرب هتلر الكبرى فى عام ١٩٤٠ .

ففى إبريل من نفس العام اجتاحت قواته الدانمرك والنرويج ..

وفى مايو استولت على هولندا وبلچيكا ولكسمبورج .. وفى يونيو سقطت فرنسا ..

وبعد ذلك تمكنت بريطانيا من الصمود ضد عدد كبير من الغارات الجوية الألمانية .. ولم يستطع هتلر غزو بريطانيا أبداً .. فقد كان تشرشل خصماً عنيداً له ..

وفى إبريل ١٩٤١ ، غزت الجيوش الألمانية كلاً من اليونان ويوغوسلافيا ..

وفى يونيو ١٩٤١ ، خرق هتلر ميثاق عدم الاعتداء المبرم بينه وبين ستالين ، وهاجم روسيا واستولت قواته على مساحات شاسعة من الاتحاد السوفيتى ، غير أن هتلر لم يفلح فى القضاء على القوات الروسية قبل حلول فصل الشتاء ونزول الجليد .

وعلى الرغم من أن هتلر كان يحارب روسيا وبريطانيا ، فإنه فى ديسمبر ١٩٤١ ، أعلن الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، أى بعد أيام من هجوم سلاح الطيران اليابانى على ميناء بيرل هاربور ، والقضاء على الأسطول الأمريكى ..

وفى منتصف العام التالى ، ١٩٤٢ ، كانت ألمانيا تستولى على مساحة من الأرض الأوربية ، كما لم تفعل أية دولة فى التاريخ ، وكانت تستولى أيضاً على شمال أفريقيا .. وكانت نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية فى النصف الثانى من عام ١٩٤٢ عندما انهزمت ألمانيا من الإنجليز فى معركة العلمين فى مصر ، وفى معركة ستالينجراد بالاتحاد السوفيتى .. وانحسرت القوة العسكرية الألمانية تدريجياً ..

وعلى الرغم من أنه بات من الواضح أن هزيمة ألمانيا وشيكة الوقوع ، فإن هتلر لم يستسلم مطلقًا ، وظلت ألمانيا تحارب لعامين آخرين ..

ولما انهزمت على جميع الجبهات ، واتجهت قوات الحلفاء لاحتلال ألمانيا .. جاءت النهاية الدرامية المريرة فى ٣٠ إبريل ١٩٤٥ .. عندما انتحر هتلر .. نعم انتحر بعد الهزيمة الساحقة التى لم يتوقعها أبداً .. فقد أطلق الرصاص على نفسه وعلى عشيقته « إيفا براون » التى تزوجها قبل الانتحار مباشـرة ..

ويروى « هانز لينج » - الذى عمل على خدمة هتلر - اللحظات الأخيرة من حياة هتلر .. فيقول :

استدعانى الفوهرر .. وقال : « **لينج .. عندى أمر خاص لك .. لقد قررت أنا وإيفا براون أن نموت معاً .. أوامرى لك هى أن تقوم بنفسك بحرق جثتينا .. لا أريد أن يتعرف علينا أحد بعد الموت .. ثم اذهب إلى غرفتى واجمع كل ما يخصنى من أشياء تذكر الناس بى** » .. بعد فترة تابع الفوهرر كلامه : « **لو أمسكوا بى حياً أو ميتاً لأخذونى إلى موسكو لعرضى على الناس ، كما لو كنت دمية من الشمع** » .. صرخ .. « **لن يحدث هذا .. إنى أقول لك .. لا .. لن يحدث** » ..

وبعد أن تأكدت من سماع صوت طلقات الفوهرر ، ذهبت إليه لأجده ميتاً مع إيفا براون .. لففت كلا الجثتين فى بطانية سميكة بعناية .. وساعدنى اثنان من الفدائيين على حملهما إلى خارج المخبأ - الذى كان يقع مباشرة تحت دار المستشارية - وهناك ، سكبت عليهما الجاز ، وما كدت أشعله حتى اندلع لهب كبير ، له بريق متوهج ..

وهكذا انتهت أسطورة هتلر .

وإيڤا براون Eva Broun هذه ، أحبها هتلر عام ١٩٣٢ ، وظلت معه منذ ذلك التاريخ وحتى انتحارهما معًا .. وكانت قد ولدت عام ١٩١٢ بميونيخ ، لعائلة باڤارية متوسطة الحال ، وقابلت هتلر للمرة الأولى عام ١٩٢٩ ، حينما كانت تعمل مساعدة لمصوره الخاص « هاينريش هوفمان » ، وقد أصبحت محبوبته التى أفنت نفسها من أجله وتوارت فى الظل ، ولم تسع للتدخل من قريب أو بعيد فى الحكم أو السياسة أو أى نشاط عام ، فقد جندت نفسها تماماً من أجله ، ولم تكن لها أية طلبات منه .. وقد تزوجها هتلر ليلة انتحارهما ..

وقصة غرامهما معروفة للجميع .. إلا أن هتلر قبل أن يتعرف عليها ويحبها ، كان قد أحب فتاة أخرى ، وكانت إحدى قريباته ، وأحضرها معه من النمسا إلى ألمانيا ، وكانت تصغره بعشرين عاماً وتدعى « چيلى » .. وبالرغم من حب هتلر الشديد لها ، إلا أنها كانت تحب شاباً آخر يعيش فى ڤيينا ، وكانت تخشى من أن يعرف هتلر ذلك فيقتله .. وفى خريف عام ١٩٣١ ، ذهب هتلر إلى عمل رسمى إلى ميونيخ .. وودعته الفتاة التى كانت تعيش فى بيته . وبعد أربع ساعات كانت قد أصبحت جثة هامدة .. فقد انتحرت .. وعندما نقلوا الخبر الحزين إلى هتلر فى ميونيخ .. بكى .. واختفى عن العيون ، ليعيش وحده فى بيتٍ ناءٍ لفترةٍ ما ، أطلق خلالها لحيته ، وظهرت على وجهه علامات الحزن الدفين ! ..

وخلال الحرب .. أقامت ألمانيا معسكرات لإبادة اليهود .. فقد كان هتلر عنصرياً متعصباً للجنس الآرى .. وكان يرفع شعار « ألمانيا فوق الجميع » .. وكان من أهدافه أن يقتل كل يهودى فى العالم ، وليته فعل ! .. وكانت معسكرات الإبادة هذه مزودة بغرف الغاز الخانق ، وكان يضع اليهود فى هذه الغرف بالجملة ..

وقد ادعى اليهود أنه قتل منهم ستة ملايين يهودى فى « الهولوكوست » أى المحرقة .. مع أنه لم يقتل إلا بضعة آلاف فقط ! . وقد أشاع اليهود هذه الكذبة فى العالم ، لكى يستدروا عطف الشعوب ، ويقولوا : إنهم مشردون فى كل مكان ، ولا أحد يرضى بهم أو يرحمهم ! . ومن ناحية أخرى زعموا ذلك لكى يتقاضوا ألوف الملايين من الماركات والدولارات الأمريكية تعويضاً لهم عن هؤلاء الضحايا الأبرياء .. الأبرياء حقًا ! ..

وكان من نتيجة هذا الادعاء العالمى أيضاً ، أن قفزوا إلى أرض فلسطين واستولوا عليها ، فعاقبوا شعباً بريئًا على جريمة لم يرتكبها ! ..

ولأسباب عديدة سوف تظل شهرة هتلر زمنًا طويلاً .. فالكثيرون يعتبرونه أكبر شرير عرفه العالم .. وهو الذى أشعل الحرب العالمية الثانية ، أكبر حرب عرفها العالم حتى الآن .. كما أن قصة حياته غريبة ومثيرة .. فهو أجنبى (لأنه نمسوى وليس ألمانياً) ، وبلا تجربة سياسية ولا مال ولا أية علاقات سياسية ، استطاع فى أقل من ١٤ عاماً أن يصبح على رأس أكبر قوة عسكرية فى العالم .

كما كانت قدرته الخطابية هائلة ، فقد كان قادراً على تحريك الجماهير ؛ ولذلك فهتلر يعتبر أعظم خطيب عرفته الإنسانية ..

ونحن لا نعرف على وجه التأكيد ، ما الذى كان سيحدث لو لم ينهزم هتلر فى العلمين ، ولا فى ستالينجراد ؟ ! .



المصـــــادر

★ السجل الذهبى للعظماء : دار الرأى العام ، المجلد الثانى .

★ دائرة معارف الشعب : دار الشعب ، المجلد الثانى .

★ شخصيـات إسلاميـة معـاصرة : إبراهيم البـعـثى ، دار الشـعب ، الجـزء الأول .

★ تاريخ العلم ودور العلمـاء العرب فى تقدمـه : د. عـبـد الحليـم منتصـــر ، دار المعـارف .

★ عباقرة رحلوا زهوراً : فايز فرح ، دار الشعب .

-★ الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ : ترجمـة أنيس منصـور ، الزهراء للإعلام العـــربى .

★ عمالقة ورواد : المستشار أنور حجازى ، الدار القومية للطباعة والنشر .

★ مجلة العربى : تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت .

★ ★ ★

موسوعة المشاهير



المعرفة مفتاح الحقيقة ، وبدونها لا يرجى ولا يمكن تحقيق أى تقدم أو إنجاز ، ولأن طريق المعرفة والتفكير العلمى والثقافة المستنيرة ، صعب وشاق ، كان لزاماً على من يرتاده أن يتسلح بالصبر والمثابرة .

واستمراراً لسياسة دار الأمين فى الأخذ بيد الشباب ، المتعطشين للمعرفة ، الباحثين عن أسباب التفوق العلمى ، نقدم العدد الثانى من موسوعة المشاهير ، رجالاً ونساءً ، من بلدان مختلفة ، وثقافات متباينة ، وفترات زمنية متباعدة ، ومجالات بحث واجتهادات إنسانية نافعة ، ولكن القاسم المشترك بينهم جميعاً ، هو حب العلم والمعرفة ، والإصرار على النجاح ، والأخذ بالأسباب ، والمثابرة ، وحسن اختيار القدوة .

ومن بين من نقدمهم فى هذا العدد : الحسن بن الهيثم ، شكسبير ، محمد إقبال ، نابليون بونابرت ، مصطفى كامل ، موتسارت ، حسن البنا ، فيكتور هيجو ، بنت الشاطىء ... وغيرهم .. نموذجاً يُحتذى لأبنائنا ولكل من ينشد المجد والشهرة والخلود .. له ولوطنه .

والله من وراء القصد ...

الناشر

دار الأمين   طبع * نشر * توزيع   DAR AL AMEEN

٨ شارع أبو المعالى (خلف مسرح البالون) العجوزة ت : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم

١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) القاهرة ت : ٩٣٢٧٠٦